D
A W
O
O
D

BOBST LIBRARY
3 1142 02367 1855

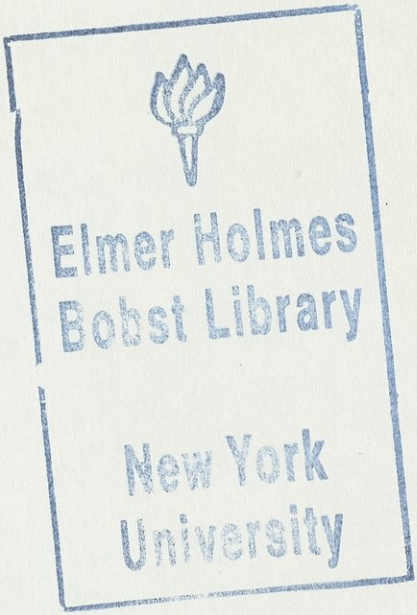

العقل والقلب

Dūmaṭ, Imīl Jabr.
6701
11
X3
22

أميل جبر ضومط

/al-ʿAql wa-al-qalb/

العقل والقلب

خواطر في العلم والتربية

مكتبة صادر
بيروت

SEP 25 1997
Q
183
.4
.A65
D85
1900z

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

02367 1855

هذا الكتاب خيّر

بقلم

ميخائيل نعيمة

الكتاب الخيّر هو الكتاب الذي يقرأك إذ انت تقرأه ، وينشر لك ما انطوى عليه كيانك من قوى واسرار إذ انت تنشر ما انطوت عليه صفحاته من تأملات وافكار . فلا تأتي على آخر فصل من فصوله حتى تحس انك كنت جدولاً فاصبحت نهراً ، أو نهراً فأمسيت بحراً ، وانك كنت تفتش عن باب واحد فانفتحت في وجهك ابواب ، وعن أفق واسع فانكشفت لك آفاق تتاخم الآزال والآباد ، وعن قوتٍ ومأوى فاذا انت تحظى بقوت لا يتعفّن وتظفر بمأوى لا يتهدّم . واذا انت اوفر معرفة لنفسك من ذي قبل واوثق صلةً بها وبسائر الكائنات ، وأمضى سلاحاً في منازلة الشدائد ، واصلب ارادةً في المضيّ الى الهدف من وجودك . وحسبك من ذلك الكتاب ان تطويه وأمام عينك هدف بعيد ، وفي قلبك ايمان وطيد بقدرتك على الوصول اليه .

اما الكتاب الذي تنشره فيطويك ، ويأخذ منك ولا يعطيك ،

ويسلّيك فيُضلّك ، ويربطك فلا يحلّك ، فكتابٌ سواده حدادٌ على بياضه وعلى الساعات والايام المهدورة في تصنيفه وطبعه وتصريفه .

ويقيني انك لا تقرأ الفصل الاول من هذا الكتاب حتى تقول معي : « هذا كتاب خيّر . » ولا تأتي على الأخير الا وانت شاعر بانك قد طفتَ عالَماً شاسعاً فيه الكثير من كنوز التفكير الصحيح والتحليل الموزون والارشاد الصادق ، وذلك في رفقة دليل خبير ومعلم مجرّب همّه الاوّل ولذّته العظمى في ان يهديك الى كل ما اهتدى اليه من جمال المعرفة ومعرفة الجمال .

وبعد فالمؤلف يسوق اليك تحت عنوان « العقل والقلب » بعض « خواطر في العلم والتربية » . وليس مَن يجهل مقام العلم والتربية في حياة هذا الجيل والاجيال التي سبقته والتي ستليه . الاّ ان الذين يجهلون قيمة العلم وحدوده أو يغالون في تعظيمه وتمجيده ، والذين يجعلون غاية التربية شحن الذاكرة بشتيت من المعلومات ثم الحصول على الشهادات ، فهم « اكثر من الهمّ على القلب » . لذلك كان لا بدّ لنا من عالِمٍ يبسط لنا اسس العلم الحديث واساليبه وحدوده ويبيّن ما يمكن ان نرجوه منه وما لا يمكن ان نرجوه ، ومن مربٍّ يقوّم مفاهيمنا للتربية ومناهجها وغاياتها . وانا ما اعرف في العالم العربي رجلاً توافرت له صفات

العـــالِم الرصين وصفات المعلّم الامين كما توافرت لمؤلف هذا الكتاب . اما العِلم فقد اخذ اولياته من الجامعة الاميركية في بيروت ثم زاد عليها من امهات الجامعات في الولايات المتحدة ومن مطالعاته الواسعة موجّهاً عنايته الى العلوم الطبيعية بنوع خاص . واما التعليم فقد ورث الميل اليه عن المرحوم والده — الاستاذ جبر ضومط — وقـــد مارسه سنين عدّة في الجامعة الاميركية وفي أعلى المعاهد العراقية حيث لا يزال يدرّس حتى اليوم .

والأمر الذي يجب ان يُسَرّ به قلب القارىء العربي هو ان المؤلف على تعمقه في العلوم الطبيعية ما انجرف بتيارها الى حدّ ان يؤمن بعصمة العلم ومقدرته عـــلى الوصول بنا الى كنه الوجود وغاية الحياة . فهو ما تشبع من العلم الحديث كما عرفه الغرب حتى احسّ جوعاً نهاشاً الى العلم القديم كما عرفه الشرق، واعني بـه الدين . وهو اذ يقرّ بفضل للعلم الحديث يقرّ بفضل اكبر للعلم القديم. فالدين في نظره عِلم مثلما الفيزياء او الكيمياء علم . كلاهما طريق الى المعرفة التي هي الغاية القصوى من كل علم . ولكل منهما مناهجه واساليبه . وهو يقول في ذلك :

« ان طريق العلم الحديث هو طريق الحسّ والمنطق المبنيّ على الاختبارات الحسيّة . وهو يؤدي الى معرفـة محدودة هي

المعرفة النسبية عن ظواهر المادة والطاقة. ولا يؤدي الى سرّهما والى حقيقتهما — لا يؤدي الى كل المعرفة ولا الى معرفة الكل.»
وهذه المعرفة العلمية يدعوها « المعرفة الدنيا » او معرفة المحسوسات . ويدعو المعرفة المستطاع الوصول اليها عن طريق الدين « المعرفة العليا » او معرفة ما وراء الحس .ثم يقول :

« ومثلما للمعرفة الدنيا طريق واصول خاصة، كذلك للمعرفة العليا منهج وطريق خاص . » وكلتاهما لا تقوم الاّ بالاختبار العملي . ولكن الاختبار العملي ميسور لطالب المعرفة الدنيا في المختبرات العلمية . في حين ان اختبار المعرفة العليا اختباراً عملياً « يقضي بتنقية النفس وترك الشهوات ونبذ الملذات الدنيا » . ولأن سواد الناس جعلوا غايتهم من الحياة التمتع بالملذات ، ولانهم وجدوا في العلم عوناً لهم على التمتع ، لذلك اقبلوا عليه وانقادوا له ، واحجموا عن الدين القاضي على طالب المعرفة بنبذ الملذات وصرف القلب عن غواياتها .

اذا سمعتَ المؤلّف يكلّمك عن الدين فلا تظنّنّ انه يعني به ما يعنيه سواد المتدينين والكثير من رجال الدين. فهو يقول في هؤلاء:

« ومن رجال الدين من جعل الدين مطية الى سلطة زمنية وربح مادّي وتمتّع بالدنيا ، وجعله علم جدلٍ وطقوس تلهي عامة الناس وتخدّرهم لكي يقنعوا بما كتب لهم من العبودية

والفقر والذل في القذارة والمرض ويتعزّوا بآخرةٍ ملذاتها تفوق ملذات الدنيا . وهكذا ادخلوا على النواة الاصليّة من تعاليم انبيائهم خرافات واوهاماً من التفاسير والتآويل التي تلبّست على نواة التعليم الصحيح . فلا السماء نزلت مع هذا الدين الى الأرض ، ولا الأرض ارتفعت الى السماء . »

وانت تعرف ايّ فكرٍ متّزن هو الفكر الذي يخاطبك في صفحات هذا الكتاب من انه اذ يقارن بين المعرفة الدنيا والمعرفة العليا لا يحملك على نبذ الاولى وعلى التمسك بالثانية وحدها ، بل يجعل من الاثنتين قوّتين متكاملتين . فالمعرفة العلمية ، علاوة على انها ضرورية لسدّ حاجات الجسد ، هي العبّارة الى المعرفة العليا . فلا بدّ لنا من المعرفة الحسية في الوصول الى معرفة ما وراء الحسّ . ومعرفة ما وراء الحسّ تعني اولاً وآخراً معرفة النفس التي فيها يبتدىء واليها ينتهي كل علم وكل دين . امّا الذين يحسبون انهم عرفوا الأشياء بمجرّد حفظهم لتعاريفها العلمية فأولئك ينذرهم المؤلف بقوله :

« التعريف والتحديد في العلم ينطويان على الكثير من التضليل ، اذ يوهمان الطالب انه قد أحاط علماً بالشيء المعرّف واستوعبه . والواقع ان ماهيّة كل شيء هي سرّ مغلق لا يمكن الوصول اليه بتعريف او بتحديد . ومهما يكن الشيء المعرّف بسيطاً او

حقيراً فالعقل لا يحيط بـه ولا يستوعبه حتى يحيط بالكون كلّه ويستوعبه... ولن يصل العلماء الى فهم حقيقة الذرّة حتى يصلوا الى فهم حقيقة النفس ومعرفة الكون كلّه . »

نه لَمِن الاجحاف بحق الكتاب الذي بين يديك ان احاول تلخيصه لك . ففي كل فصل من فصوله نواة لكتاب جليل . ولكنني بما قلته حتى الآن انما اردتك ان تعرف انك في حضرة مؤلِّف فكّر كثيراً ، وخبر كثيراً ، وعلّم كثيراً قبل ان اقدم عـــلى عرض خواطره عليك في العلم والتربية . ولو انّ خواطره ما كانت بعيدة كل البعد عن الابتذال ؛ او لو انه ما كانت له المقدرة عـلى تعزيزها بالحجة والبرهان وعلى بسطها بلغة لا تصنّع فيها ولا تعقيد ؛ او لو ان العالَم اجمالاً — والشرق العربي على الأخص — ما كان في أمَسّ الحاجة اليها لما كانت جديرة باهتمامك واهتمامي . ولكنها خواطر تنتزعك برفق ولباقة من عالم الرغوة والقشور الى حيث الحياة صفوة ولباب. فتجرّد لك العلم من طفيليـاته ، والدين من خرافاتـه ، والتربية من ترّهاتهـا وتردّها جميعاً الى غاية واحدة هي المعرفـة الكاملة — معرفة النفس في كل حالاتها وكل علاقاتها مع الكون — تلك المعرفة التي بهـا لا بغيرها يتحرر الانسان من عبوديته للطبيعة وقوانينها الصارمة ، وللنفس واهوائها الجامحة .

اذن فكل علمٍ لا يساعد الانسان على معرفة نفسه هو دخان بغير نور ونار . وكل مدرسة لا توجه مناهجها في ذلك الاتجاه «هي شبه مارستان معزول عن العالم يزعمون انها تُعدّ النشء للحياة وللعالم خارج جدرانها . اما المدرسة المثلى فلا تفصلها عن العالم جدران ، ولا يعزلها عن الحياة استعداد للحياة»

في المدرسة المثلى تتصل الدروس داخل المدرسة اتصالاً مباشراً بالحياة خارج المدرسة . فلا يتعلم الطالب اشياء يحار كيف يجد الصلة ما بينها وبين حياته الروحية والمادية . ولا تُصرف العناية الى حشو الذاكرة بكل شاردة وواردة وتُهمل الأخلاق والذوق والحواس والقوى العقلية . وكيف تكون تربية بغير اخلاق صالحة ، واخلاق صالحة بغير ذوق جميل ؟ ثم كيف تكون معرفة بغير عقل ، وعقل بغير حواس ؟ وما دامت الحواس هي سلاح العقل الى المعرفة فجليّ انه من الخير — بل من الضرورة — ان يكون سلاح العقل ماضياً وأن يحذق العقل استعماله على اتمّ وجه . لذلك كان لا بدّ للمربي من ارهاف حواسّ الطالب وشحذ قواه العقلية . فحواس اكثر الناس بطيئة وبليدة ، وقواهم العقلية مهملة وصدئة . وإرهاف الحواسّ والقوى العقلية يزداد بالمران . فنظير ما الملاكم او المصارع لا ينقطع عن تمرين مفاصله وعضلاته ، والموسيقي عن تمرين سمعه واصابعه ،

كذلك لا بدّ للحواس والعقل من تمارين لصقلها وارهافها. ومن واجب التربية ان تهتم برياضة الحواس والقوى العقلية قبل ان تهتم برياضة العضلات والمفاصل. ولترويض الحواس والقوى العقلية اساليب مثلما لترويض الابدان اساليب. والتربية التي لا تُعنى بصقل الذوق وتثقيف الاخلاق وترويض الحسّ والعقل تربية ناقصة، فاشلة.

قلت إن في كل فصل من فصول هذا الكتاب نواة لكتاب. وانه لمن الصعوبة بمكان ان تؤثر فصلاً على فصل. وكلّها يثير فضولك وجدلك. وانت قد لا توافق المؤلف في بعض آرائه. ولكنك لا تستطيع إلاّ ان تحترم آراءه وان تجلّ استقلاله في التفكير وجرأته في غربلة العلم والتربية غربلةً تنمُّ عن روح مقدام يتعشق الحرية ويحب الغوص الى الأعماق والتغلغل في الأعالي، وعن قلبٍ فهيمٍ وعى المشاكل الاساسية في حياة الانسانية مثلما وعى أنبل ما فيها من مطامح. فهو عالميّ في تفكيره، انسانيّ في شعوره، شرقيّ في روحه. وكتابه الذي بين يديك خير شاهد على ذلك. فيا ليت مَن في ايديهم تربية الجيل الطالع والاجيال الآتية في هذا الشرق يعيرونه ما هو جدير به من الاهتمام. بل يا ليت كلّ توّاق الى العلم والمعرفة يهتدي اليه ليهتدي به.

العقل والقلب

منذ فجر الانسانية وقلب الانسان يتأجّج باشواق حارّة ما كتب لها الوصال بعد. فكأنّ القلب ظامىء في الصحراء لا يجد ماء يرتوي به. فلا الظماء يلاشي نبض الحياة فيه ولا هو يقوى على الظماء فيتحرر منه. وكأنّ اشواقه لهيب نار لا هي تلتهمه فترمّده ولا هو يجد القوة على اطفائها. وامّا العقل المفكر فقد كان الخادم الامين والمطيع للقلب في اشواقه سواء على تيهه او على هدايته.

ويتفتح العقل النيّر فيعرض هدايته ومعونته على القلب المتألم الحائر. ولكن القلب يرفض برودة العقل النيّر مفضّلاً لهيب النار عليها. لقد كان يتأجّج بنار واحدة فاصبح بين نارين: نار اشواقه ونار سجاله مع العقل النيّر. والمعرفة وليدة سجال القلب مع العقل؛ فهي كالابنة النقيّة الطاهرة المحبّة توفّق بين ابوين متنازعين، وهي التي من شأنها ان تزيل وهم انفصال القلب عن العقل وان تبيّن للنفس وحدتهما، فتغربل اشواق القلب وتنقيها من الزائف الذي اختلط بها وتبوّأ المكانة الاولى بينها،

وتصفّي الفكر من اوهام كثيرة تزيّت له في زيٍّ الحقيقة وهي اوهام . وقد جعلت المعرفة من لهيب القلب وبرودة العقل اشعّة نيّرة دافئة تهدي النفس سبيلها الى الحرية والاغتباط بصفاء الحياة . فالمعرفة هي البشارة بالخلاص من الحيرة ما بين اشواق القلب ووازع العقل .

العلم والمعرفة

مِن الناس مَن يبلغ منتهى مناه اذا جمع في الصيف مؤونة الشتاء وامّن معيشة عياله . فهو لا يبالي بشيء آخر بل ينجرف مع كل تيّار . ولا هو مرهف الاحساس . فلا يفرح كثيراً ولا يحزن كثيراً . ومنهم النهم لا يشبع مهما جمع من المال وحطام الدنيا . ومنهم الطموح الى السلطة الزمنية لا يبالي بعلم ولا بدين الا على قدر ما يساعدانه على الوصول الى مطامحه . والدافع الاساسي الى الطموح إنْ وراء المال او وراء السلطة الزمنية هو الرغبة في توسيع المجال للتمتع بالشهوات والملذات . هذه الفئة من الناس تتوهم السعادة في لذة التمتع . فالحياة في قاموسها متعة وحرمان ، لذة وألم . وطبيعة الانسان في اعتقادها التفتيش عن المتعة واللذة والهرب من الحرمان والالم . وليس من يغيّر سنّة الله في خلقه . اولئك قوم لهم عناد الجاهل في تكالبهم على الدنيا واعراضهم عن المعرفة . وقد يكونون ممن نالوا شهادات علمية عالية من جامعات هذا العصر . ولكنهم تجاه احزان الدنيا وآلامها يستسلمون استسلام اليائس . وشتان ما بين عناد الجاهل

ومثابرة طالب المعرفة. واين استسلام اليائس القانط من استسلام العارف لمشيئة القدرة الالهية ؟

من يصل الى درجة معيَّنة من المعرفة يصل الى الاستقرار والاطمئنان والاغتباط بالحياة في كل حالاتها اغتباطاً يفوق كل ملذات الدنيا. ولكن المبتدىء في طلب المعرفة يمرّ بمرحلة يتألم فيها كثيراً تألماً فكرياً نفسياً. فكأنّ معرفته جنت عليه. وهذا ما جعل بعضهم يقول: «تصفو الحياة لجاهل او غافل ...» وطلاب المعرفة لا يكتفون بالحصول على حاجات الجسد، ولا ينشدون سعادتهم في المال او السلطة، بل يشغلهم التفكير في سرّ الكون، في معنى الحياة، في اللذة والالم، في الخير والشر، في السعادة وكيف يحصل عليها الانسان ومن اين تأتيه. وعامة المتعلمين، حتى الذين يستغرقون معظم اوقاتهم وتفكيرهم وجهودهم في السعي وراء الثروة والجاه والسلطة، تمرّ بهم ساعات يتوقون فيها الى معرفة الاسرار التي تكتنفهم والى الخلاص من كابوس الهم والالم الذي يلازمهم كل حياتهم، فيسألون الف «لماذا» ولكنهم لا يحصلون على جواب يروي ظمأهم. وكم تسمعهم في ساعات حزنهم ويأسهم يرددون عبارات عامّة الناس لان علمهم لم يزدهم عن عامة الناس معرفة. تسمعهم يقولون: «بئست الحياة كل ما فيها باطل!» ولا يخطر ببالهم ان ما سعوا وراءه في

الحياة فحصلوا عليه كان باطلاً . ولو انهم سعوا وراء المعرفة لمجّدوا الحياة .

كان زمان عمّ فيه قبول التعاليم الدينية التقليدية على ظاهرها البسيط . وكان الناس يلجأون اليها ويتعزّون بها حين يشعرون بجوع لا تشبعه الدنيا وعطش لا ترويه ، او حين تلمُّ بهم آلام واحزان لا يجدون في الدنيا بلسماً شافياً لها . ولا يزال على هذا الايمان افراد قلائل من بسطاء القلب. ثم جاء العلم الحديث فاحدث تغييراً عظيماً في حياة الناس ، في تفكيرهم واعتقادهم وتصرّفهم ، وعلى الاخص المتعلمين منهم . وقد زعزع ايمان الكثيرين بالتعاليم الدينية من غير ان يعوّض عليهم بايمان جديد او قوة جديدة تخفف عنهم وطأة الالم والحزن ، او تبعث في قلوبهم الطمأنينة والسلام. وها هو الانسان المتعلم في هذا العصر لا يزال يتوق الى الطمأنينة والسلام ويفتش عن السعادة في العالم فلا يجدها ولا يشعر بها في قلبه . ويفتش في ضوء العلم الحديث عن المعرفة التي تحرره فلا يهتدي اليها .

ما هو هذا العلم الذي نعزو اليه التأثير العظيم على حياة هذا الجيل ، وما هو ذاك الدين الذي يتنازع مع العلم ؟ يتكلم الناس عن العلم كما لو كان ذا كيان مستقل خارج عن نفس الانسان . وحين يقولون ان حلّ مشاكل البشرية وخلاص

الانسان من همومه وآلامه واوجاعه يكون بواسطة العلم فنظرهم الى العلم هو نظر التاجر الى المال او نظر المصلح السياسي الى الدولة وسلطانها او نظر المريض الى الطب وعلاجاته. ومثلما يتكلمون عن العلم ويتصورون له شخصية معنوية داهية كشخصية الشركات التجارية يتكلمون ايضاً عن الدين كما لو كان نداً للعلم. وحين يقابلون بين العلم والدين فكأنهم يقابلون بين رجل عصامي ورجل ورث النفوذ والجاه والشرف اباً عن جدّ. وهيبة العلم والعلماء والدين ورجال الدين في اعين الناس هي كهيبة المصرف الماليّ عند التاجر والدولة وموظفيها عند العامة.

العلم هو وليد عقل الانسان. وثمار العلم هي صنع يديه. وابناء هذا الجيل في تعظيمهم للعلم اصبحوا كصانع الصنم يسجد لما صنعت يداه. اذا كان حريّاً بالانسان ان يعظم العلم فأحرِ به ان يعظم العقل الذي لا قوام ولا وجود للعلم الاّ به. العلم يشمل المعلومات عن الكون — المعلومات المنفردة والقوانين العامة — المدونة في المعاجم العلمية، والاصول المتبعة لادراك تلك المعلومات ولتطبيقها. والاصول هذه يقال لها ايضاً الطريقة العلمية او الاسلوب العلمي. ويمكننا ان نطلق اصطلاح المعرفة العلمية على تلك المعلومات وعلى ادراكها واصول الوصول اليها وتطبيقها اي الاهتداء بها الى بعض التسلط على الكون والى

الحصول منه على حاجاتنا المادية ، على نحو ما يهتدي المسافر الى محجته بخريطة جغرافية رسمت بالتصوير الفوتوغرافي من الجو . وبتعبير آخر : المعرفة العلمية هي الصورة المنطبعة في العقل والقوى العقلية التي ترسم الصورة وتهتدي بها . ان طريق العلم الحديث هو طريق الحس والمنطق المبنيّ على الاختبارات الحسية ، وهو يؤدي الى معرفة محدودة هي المعرفة النسبية عن ظواهر المادة والطاقة ، ولا يؤدي الى سرّهما وحقيقتهما الباطنة . فهو لا يؤدي الى كل المعرفة ولا الى معرفة الكل. وللمعرفة العلمية الصحيحة اصول ومحكّ متفق عليهـــا . هذا هو العلم — طريق العقل الى المعرفة الدنيا .

والدين هو العلم الذي يؤدّي الى المعرفة العليا ، معرفة ما وراء الحس ، المعرفة الباطنة . من يصل الى المعرفة العليا تصبح المعرفة الدنيا مع معرفة اسرارها كتاباً مفتوحاً له . لا نريد بذلك ان من يدرس الكتب الدينية والعلوم الدينية على حسب ما تدرّس في المعاهد التعليمية الدينية يصبح اوتوماتيكيّاً عالماً في الطبيعيات والرياضيات وبقيـة العلوم . ان الدراسة الشائعة للعلوم الدينية في العالم معظمها على مستوى المنطق كما في العلم الحديث . ولكن من يتبع حتى النهـاية طريق الحياة الروحية تتفتح فيه بالتدريج كل القوى العقلية والروحية الهاجعة في نفس

الانسان فتتجلى له على الطريق شيئاً فشيئاً اسرار المعرفة التي يقف على عتبتها العلم الحديث ، ويصبح قادراً ان يرى ما لا تراه العين وان يسمع ما لا تسمعه الاذن وراء حجب المادة . ومثلما للمعرفة الدنيا طريق واصول خاصة كذلك للمعرفة العليا منهج وطريق خاص . ومثلما الاختبار العملي هو محك المعرفة الصحيحة في العلم كذلك في المعرفة العليا . اتبع الطريق والاصول تمتحن بنفسك صحة المعرفة بالاختبار . لكن مختبر المعرفة العليا هو غير مختبر الكيمياء والفيزياء . ومن حيث ان بداية الاختبار العملي للمعرفة العليا تقتضي تنقية النفس وترك الشهوات ونبذ الملذات الدنيا فقد احجم سواد الناس عن طريق المعرفة العليا لانهم جعلوا غايتهم ان يتمتعوا بتلك الملذات وسخروا علمهم للوصول اليها . ومثلما نقبل في المعرفة الدنيا كثيراً من الحقائق البدائية قبل ان نتمكن من البرهان عليها بانفسنا كذلك في المعرفة العليا لا نستغني عن قبول مبادىء منها قبل ادراك البرهان على صحتها ، وذلك بناء على ثقتنا بصدق المعلم الروحي الذي ادرك البرهان بنفسه .

الاختبارات التي تصل الى حيّز الوعي العقلي عن طريق الحس هي للعلم الحديث كالمواد الخام للصناعة ، فمثلما تبتدىء الصناعة بالمادة وتنتهي بالمادة ولا تغيّر الا شكلها وقالبها كذلك

يبدأ العلم بالاختبارات الحسية وينتهي بها . والدين يبتدىء بما وراء الحس وليست الاختبارات الحسية عنده سوى عبّارة الى الاختبارات الروحية التي تتسامى عن كل لذة حسية . ولكن تعلّق الانسان بالدنيا وشهواتها وبملذات الحواس قد افسد عليه خيرات الدنيا وبركات الروح . وهذا التعلق قد جعل الانسان يسخّر علمه ويمسخ دينه لاجل المادة .

من العلماء من لا يعترف بحقيقة وجود شيء ما لم يختبره عن طريق الحواس الجسمانية بالاختبار المباشر او بالاستنتاج المبنيّ على الاختبار الحسي ، ويتطاول الى تفسير العقل والفكر ، والقلب والعاطفة ، والمحبة والايمان كما يفسّر تكوين الارض وزلازلها ، والبحر وامواجه ، والهواء وانواءه ، وجاذبية الارض ونور الشمس وتغيرات المادة بالذرات المادية والقوى المحسوسة التي بينها وبالتفاعلات الكيميائية . ولا يؤمن بوجود روح وإله ما لم يجد له وزناً يزنه بالميزان وابعاداً يقيسها بالذراع وعمراً يقيسه بالساعات والثواني . العلم المسخّر للمادة يعد الناس ببحبوحة من خيرات الارض وبالتمتع بالملذات من دون عواقبها الاليمة في هذه الدنيا او في الآخرة لانه ينكر بقاء الشخصية الفردية بعد موت الجسد .

ومِن رجال الدين مَن جعل الدين مطيّة الى سلطة زمنية وربح ماديّ وتمتع بالدنيا ، وجعله علم جدل وطقوس تلهي عامة

الناس وتخدّرهم لكي يقنعوا بما كتب لهم من العبودية والفقر والذلّ في القذارة والمرض ويتعزّوا بآخرة تفوق ملذاتها ملذات الدنيا . وهكذا ادخلوا على النواة الاصلية من تعاليم انبيائهم خرافات واوهاماً من التفاسير والتآويل التي تلبّست على نواة التعليم الصحيح . فلا السماء نزلت مع هذا الدين الى الارض ولا الارض ارتفعت بذاك العلم الى السماء .

لا تخلو البشرية من افراد يحلّون كلاً من العلم والدين محله اللائق في حياتهم ، وعلى قدر معرفتهم تخلو حياتهم من الاضطراب والالم والقلق والكدر . ولكن عامة المتعلمين هم في حيرة بين العلم والدين . والسواد الاعظم منهم ليس انتماؤه لهذا الدين او ذاك الاّ من الوجهة القومية السياسية .

غاية العلم المعرفة . وبالمعرفة القدرة للتسلط على قوى العالم الظاهر ، عالم المادة والطاقة الظاهرتين للحواس ، وتسيير تلك القوى تبعاً لارادة الانسان واستخدامها لحاجات الجسد . هي التسلط على العالم الظاهر بوسائط من نوعه . والغاية من الدين هي المعرفة ايضاً ، لكنها المعرفة التي تؤدي الى التسلط على قوى العالم الباطن التي تسيّر الانسان من حيث لا يدري . كل ما نسميه حظّاً او نصيباً او صدفة يأتينا من حيث لا ندري ليس حظاً او نصيباً او صدفة ولكنه نتيجة عادت على الانسان لسبب كان

قد صدر عنه . من لم يصل الى المعرفة العليا لا يمكنه ان يتتبّع الصلات الباطنة بين الاسباب والنتائج التي تصيب كل واحد في حياته . فالحادثة التي نجهل اسبابها وصلاتها فنراها معزولة عن كل حادثة غيرها نسميها صدفة تبعاً لجهلنا . وبالتسلط على قوى العالم الباطن يتحرر الانسان من عبوديته لعالم الاضداد حيث اللذة والالم ، الفرح والحزن ، الخير والشر ، فيصبح فوق هذه كلها في غبطة دائمة لا تقبل الزيادة او النقصان ، ويرى ان نفس الانسان ازلية ابدية ، ويدرك ان المعرفة العليا ليست لتعدّه للآخرة فحسب ولكن لتصلح امر دنياه ايضاً ، فالدنيا والآخرة متصلتان معاً . وعلى قدر معرفته يصبح مخيّراً في مصير نفسه ، وعلى قدر جهله هو مسيّر بمشيئة الأقدار او المشيئة الكلية الشاملة .

انّ أتباع العلم الحديث يتوهمون ويدّعون ان العلم الحديث هو الطريق الوحيد الذي يعتمد عليه للوصول الى اسمى مراتب المعرفة ، ويقولون بانّ المبادىء الاولية للمعرفة العليا الواردة في نصوص الدين هي تخيلات المقهور على امره في الدنيا ، وهي تتطلب من الانسان ما لا يمكنه تطبيقه لانه لا يتوافق مع ما يسمونه واقعيات الحياة ، بل يناقض مقتضياتها الاساسية . وهم لا يرون صلة او علاقة بين العلم والمعرفة من جهة وبين ترك التعلّق بالدنيا ، وتنقية القلب من الشهوات ، وكظم الغضب

والبغض ، ومحبة القريب ، والصوم والصلاة من الجهة الثانية. ان تطبيق مبادىء المعرفة العليا يقتضي ترك كثير من الاشياء التي يسعى وراءها الناس ويتخاصمون من اجلها واهمين انها من مقوّمات الحياة ، لان الانسان بتركها يزيل الحجب عن بصيرته ويحصل على السلام والاطمئنان .

ما زال أتباع العلم الحديث يحلّون العلم منزلة ليست له فلن يستقيم في نظرهم العالم الذي هم فيه عائشون بل يظل عالمهم مملوءاً بالمتناقضات والاضداد والآلام . وعبثاً يحاولون اصلاحه . اذا هم حاولوا ان ينقوه ويصفّوه من الشر مستبقين فيه الخير فهم كمن يحاول محو الكهربائية السلبية والابقاء على الكهربائية الايجابية في عالم المادة والطاقة ...

هوذا ابناء هذا الجيل الذين نالوا اعلى درجات العلم في العلوم المادية والاجتماعية والطب والفلسفة — ها هم في مجالسهم يتحدثون عن تفاوت الحظوظ بين الناس وغرائب الصدف في حياتهم والتيارات العالمية التي تجرف الصالح والطالح معاً الى نهاية واحدة ، وعن الاقليات الجشعة الظالمة التي تستأثر باكثرية بريئة فتستعبدها وتستثمرها في السلم ثم تسوقها الى المجزرة في الحرب . ويتحدثون عن المؤتمرات السياسية والنظم القومية والعالمية لاصلاح شأن الشعوب ولمنع الحروب ، ويهزأون بمن

يقول لهم ان سنّ الشرائع لا يحسّن حال الشعب ، وعقد الاتفاقات والمواثيق لن يخلّص الشعوب من الحرب ما لم يطرح الناس افراداً وشعوباً اسباب الظلم والخصام من قلوبهم . ولن يستتب نظام عادل ما لم ينقّ الشعب قلبه لاقتباله . حديثهم هو حديث شجون وتألم . ان كانوا ممن لا يزالون متمسكين تمسكاً شفويّاً سطحيّاً بعقائد الدين فكيف يوفقون بين ظاهر ما يجري في العالم وبين اعتقادهم باله واحد عادل محب للبشر عالم بكل شيء وقادر على كل شيء ؟ او كانوا من «الطبيعيين الانسانيين» يعتقدون انهم ابناء الطبيعة التي منها نشأوا فأنّى لهم اكثر مما فيها ، ومن اين لهم ذكاء اعظم من ذكائها وقوة فوق قوتها حتى يحاولوا اصلاح ما هي عاجزة عن اصلاحه ؟ اين العلم الحديث ليخلّصهم من كل تلك المشاكل والآلام ؟ هبْ ان الانسان توصّل بالعلم الحديث الى علاج يشفيه من مرض او يقيه من حظ منحوس او من ميتة صدفة بسهم طائش فكيف يؤمّن منع اتخاذ المعرفة العلمية مطيّة لتضخيم المطامع وتغذية الشهوات الشخصية وما يتبع ذلك في موكبها من الشرور ؟ ومن اين جاءته المعرفة التي تقول له بمنع التعدّي وكبح الشهوات والمطامع وتضميد جراح الانسانية ؟ هل جاءته عن طريق العلم الحديث ؟ كلا . لو كان في العلم الحديث معرفة المثل العليا في

الحياة لما كان الانسان في الحرب يوجّه العلم لخراب واتلاف ما تعب على بنائه بالعلم ذاته في السلم. الانسان بالعلم الحديث من دون المعرفة العليا كباخرة عظيمة مجهزة باحدث واعظم المحركات الميكانيكية وبكل وسائط الراحة والرفاهية ولكنها من دون دفة وربانها يجهل علم الملاحة لاهٍ مع الركاب في صالونات الباخرة وقاعات اللهو التي فيها .

انستغني بالمعرفة العليا عن المعرفة العلمية ؟ كلا ! للمعرفة العلمية وظيفة علاوة على استخدامها لحاجات الجسد. هي عبّارة لا غنى عنها للمعرفة العليا. ولكن من يرى في العلم الحديث كل المعرفة وكل حاجات الحياة يصيبه ما اصاب اصحاب برج بابل في الزمان القديم . وليست فظاعة الحروب العالمية في هذا العصر سوى نتيجة لتوسع المعرفة العلمية توسعاً عظيماً من دون المعرفة العليا . ومن ينبذ المعرفة العلمية ظنّاً منه انه يقدر على المعرفة العليا من دونها يعرّض معرفته لطغيان الاوهام والخرافات على نحو ما حدث ويحدث في فترات التحمّس الديني مع تفشّي الجهل . ولا يغرب عن بال احد ان المعرفة العليا ليست اعترافاً شفويّاً او ادراكاً عقليّاً مجرداً ولكنها ايمان في القلب يدفع صاحبه من دون تردّد الى العمل — الى سلوك طريق الحياة الصالحة .

التفكير العلمي

العلم الحديث هو الميزة البارزة لهذا العصر والعامل الفعّال في حضارته وثقافته . وقد اصبح المتعلمون ينظرون اليه نظرهم الى سفر مُنزل . فالحقيقة التي تُثبَت باسلوب العلم الحديث هي في نظرهم حقيقة لا تعارض ولا تدحض ولا تنقض . هم يغالون في تعظيم العلم ويزعمون ان خلاص الانسان من جميع مشاكله وآلامه ووصوله الى رغد العيش ومنتهى المعرفة والاطمئنان الى الحياة يكون عن طريق العلم الحديث . وبتعبير آخر هم يقولون ان الانسان يجب ان ينظّم اعماله ويسّير سلوكه الفرديّ وعلاقاته الاجتماعية بموجب القوانين التي أُثبتت صحتها بالاختبار العملي على النحو العلميّ الحديث لا بموجب القوانين والشرائع التي اعطيت له من دون البرهان العلمي العملي على صحتها .

انّ الفوائد التي جناها الانسان من اتّباعه طريق العلم الحديث وتنظيم اعماله بموجب التفكير العلمي لا يستهان بها . فقد كان ارتقاء الانسان مما اسموه ظلمات الاجيال الوسطى الى حضارة هذا العصر مماشياً تطبيق العلم الحديث على التفكير والعمل . وكانت من ذلك النتائج التي نشاهدها كيفما ادرنا

نظرنا . ويكفي لادراك التغيير الذي احدثه العلم الحديث والتفكير العلميّ في حياتنا الزمنية ان نقابل بين حياة احدى القرى الفقيرة النائية التي لا تزال على الحالة البدائية وبين المدن الحديثة والمزارع النموذجية . ان النجاح الذي لقيه العلماء باتّباع طريق العلم الحديث وتطبيقه على العمل قد جعلهم يعظمون العلم كأنه وحي بدين جديد . وكان من نتائج تعظيم العلم الحديث على جهل أسسه وحدوده أنْ تصدّى العلماء لابحاث خارجة عن نطاقه وهي ابحاث لا يمكن الوصول الى المعرفة الصحيحة عنها بالاسلوب العلمي . وقد نشأ من ذلك اوهام وعقائد مضلّة كان لها الاثر البالغ في حياة هذا الجيل .

كان للعلم الحديث نتائج حسية ونتائج فكرية ايضاً . امّا النتائج الحسية فقد زادت في رفاهية الحياة الزمنية – حياة الجسد – واوسعت المجال للتمتع بالملذات واللهو . ومنها ما خلق للانسان هموماً ومتاعب جديدة في السلم واهوالاً في الحرب . وامّا النتائج الفكرية فلم تكن اقلّ اهمية من النتائج المادية وقد كانت مماشية لها بمعنى ان كل اكتشاف او اختراع جديد احدث تغييراً في اساليب المعيشة قد احدث تغييراً ايضاً في تفكير الانسان وفي وجهة نظره الى الكون والحياة وفي تصرّفه وسلوكه . من النتائج الفكرية ما حرّر الانسان من بعض

الخرافات والتقاليد والمخاوف وقوّاه على مجابهة الطبيعة والحياة ووسّع نظره حتى اصبح يدرك من عظمة الكون اكثر مما كان في استطاعته من قبل . ومنها ايضاً ما اقصاه عن حقيقة الكون والحياة وعن نفسه وخلق له اوهاماً وخرافات علميّة جديدة .

قد افاض الكثيرون من الكتّاب في وصف ما كان للمخترعات ومنتوجات الصناعات العلمية الحديثة من النتائج في تغيير اساليب المعيشة . وقد اطلق بعضهم العنان لتخيلاتهم عمّا سيكون عليه العالم في العصور المقبلة ؛ وكان معظم موضوع اهتمامهم ووصفهم اموراً سطحية من مأكل ومشرب ومسكن وتنقّل ولهو على نحو ما نراه اليوم من استخدام اكتشافات واختراعات عظيمة لتغذية اللهو واللذة في توافه الحياة في حين انّ فيها مذخراً عظيماً لتغذية الفكر والخيال والتأمل بما يتسامى عن ذلك . ان تغيّر وسائط النقل من البعير والحصان الى السيارة والطيارة مثلاً ليس له اهمية اساسية في حياة الانسان ما زال منظوراً اليه انه وسائل نقل لا غير . ولكن وسائط النقل الحديثة تصبح ذات اهمية عظيمة اذا نُظِر اليها من وجهة انها جعلت شعوب العالم على اتصال وتخالط بعد ان كانوا منعزلين بعضهم عن بعض وستكون بذلك احد العوامل الفعّالة المؤدية الى توحيد الانسانية . والاختراعات الكهربائية من التلغراف الى

التلفون والراديو والتلفزة قلّ من يهّمه من امرها سوى انها سهّلت على الفرد أنْ يتحدّث على البعد الى الشخص الذي يريده حديث شغل ام لهو، او ان يستمع الى الاخبار والموسيقى وهو قاعد في بيته . لكن التفكير والتأمل في انّ تلك الاختراعات قد جعلتنا على عتبة العالم الباطن نجابهه مجابهة تكاد تكون مباشرة ، قلما يجول في خاطر احد غير القليلين من ابناء هذا الجيل . كانت لتلك الاختراعات في اوّل ظهورها دهشة ، ولكنها زالت من بعد ان سُخِّرت تلك الاختراعات لتضخيم الثروة ووسائل اللهو في توافه الحياة . ولو عقب الدهشة البدائية تأمل متواصل في الاسرار التي قرّبتها الينا او قربتنا منها تلك الاختراعات لكانت حياة ابناء هذا الجيل على غير ما هي .

ان التغيير الذي احدثه العلم الحديث في المأكل والمشرب واللباس والمسكن والتنقل واللهو ليس ذا اهمية اساسية ولكن تأثيره على التفكير وعلى العقائد الاساسية في الحياة هو امر حريّ بالبحث وامعان الرويّة . واذا اعتبرنا ان العلم الحديث بتسهيله وتعميمه وسائط اللهو والتمتع قد سهّل على ابناء هذا الجيل الانجراف في تيارها والانصراف عن التأمل في غاية اسمى من اللهو والتمتع فنقول ان تأثير العلم الحديث من هذه الوجهة كان ازاغة الانسان عن المحجة التي وجه انظارنا اليها المعلمون

والانبياء منذ القدم .

انّ اوّل الآثار البارزة للعلم الحديث في هذا العصر هو تسلّط الانسان على بعض قوى الطبيعة وتحرّره من الاعتقاد بانها تمتثل لأهواء ارواح متسلطة عليها . كان الانسان اذا اراد شيئاً من الطبيعة صعب عليه مناله يستعطف الارواح بتضرعاته وصلواته اليها حتى تتدخل في مجرى الطبيعة وتحوّلها عن نظامها الى الغاية التي يصلّي من اجلها ، على نحو شبيه بما هو شائع من التوسل الى الحكام لكي يسمحوا بتصريف بعض الاعمال على وجه مخالف للقانون . اما الآن فقد اصبح الانسان نفسه يحوّل مجاري القوى الطبيعية ويسخّرها لخدمته على نحو ما هو شائع ومعروف في لجم واستخدام القوى المائية والحرارية والكهربائية وذلك على مقياس يفوق كل ما صنعه الانسان من قبل الى درجة بحيث يظهر كأنه عمل جديد من نوعه . وصار يعتقد ان الطبيعة تتمشى على نظام لا يتغيّر وانّ الارواح لا تتدخل في الطبيعة ولا تغيّر نظامها ، وانّ على الانسان ان يكتشف قوانين الطبيعة اولاً ثم يدبّر وينظم اعماله بحيث تتوافق مع القوانين الطبيعية ولا تعاكسها . مثال على ذلك انه كان اذا اراد نجاح مزروعاته اقام الصلوات والتعاويذ . فاصبح اليوم يحلّل التربة تحليلاً كيميائياً ويضيف اليها الاسمدة المناسبة ويستعين بالعلوم

البيولوجية لتحسين الانواع ولمحاربة الآفات التي تفتك بالمزروعات والمواشي . ولا يزال الكثيرون من الناس يعلقون التعاويذ في اعناق الاطفال لدرء شر المرض عنهم ولحمايتهم من الاصابة بالعين ، ولكن الذين تأثروا بالعلم الحديث اصبحوا يصونون اطفالهم عن المرض بالغذاء المناسب والنظافة والتطعيم ...

لم يلجأ الانسان مرة الى الآلهة لينال بواسطتها ما قدر عليه هو بقوته وحيلته ، ولا استعاذ بها لدرء ما قدر هو نفسه على ردّه. ولكنه من حيث انه كان قصير الباع قليل الحيلة والمعرفة كان سرعان ما يصل الى حدّ قدرته حتى في الاحوال الاعتيادية من حياته. وبالنتيجة كان كثير الالتجاء والتضرع الى الآلهة. ولا يزال على هذه الحال الكثير من عامة الناس والقليل الشاذ من المتعلمين. لكن معظم المتعلمين اليوم يزعمون ان الانسان اصبح سيد الطبيعة تزداد سلطته عليها بازدياد معرفته العلمية بها وصاروا يزدرون عقيدة القدرة الالهية والتوكل على الله تعالى زعماً منهم ان العقيدة هذه تؤدي الى التواكل والخمول . انما لا يزال ما يجهله الانسان من الطبيعة اعظم بما لا يقاس مما يعلمه وهو هناك بعيد جداً عن ان يدعي السيادة. اين قدرته وسيادته على البراكين والزلازل والعواصف او على الحشرات والجراثيم ؟ فهو حيث يجهل الطبيعة ينظر اليها بغير العين التي ينظر بها في مجال علمه .

حيث يجهل الطبيعة يراها عمياء هوجاء تتلف ما تنتج وتهلك ما تلد ولا غاية تسعى نحوهـا ولا نظام تتمشى عليه ، فمواليدها لم تلدهم لغاية بل جعلتهم عرضة لأهواء المصادفات،وهم في نزاع دائم بعضهم مع بعض وفي كفاح ضد امهم الكبرى.فمن هذه الوجهة لا يفرق الانسان المتعلم في هذا العصر عن الانسان البدائي سوى في اطراحه ونبذه الاعتقـاد بقدرة شاملة تدبّر الطبيعة حسب مشيئتها وفي كبريائه على الانحناء لها .

ان بعض النتائج التي توصل اليهـا العلماء في علوم الاحياء جعلتهم يعتقدون بانهم على عتبة مرحلة جديـدة يتسلط فيهـا الانسان عـلى الحيـاة نفسها بعين الاساليب والوسائط التي بهـا تسلط عـلى القوى الميكانيكية والحرارية والكهربائية ، فيولّد الاحياء في انبوبة الاختبـار لا في الرحم ويجعل فيهـا الصفات والخصال النفسية التي يريدها ، اذْ راح بعض العلماء يعتقد ان الصفات النفسية هي نتيجة الافرازات الداخلية وان علمهـا هو فرع من علم الكيميـاء . وراح بعضهم يفسّر الفكر بالفصفور وعاطفة الامومة بالمنغنيز والغضب بالادرنالين الى آخر ما هنالك من التفاسير . وقد ادّت الابحاث هذه الى تقوية العقيدة المادية انّ الحياة ونفس الانسان بمـا فيهـا من فكر وعاطفة وخصال روحانية ليست سوى اعراض مادية تزول مع الزمان . والطب

الحديث – فيما عدا بعض الامراض العصبية – يكاد يكون بالفعل مؤسّساً على هذه العقيدة .

وكثير من نتائج الابحاث العلمية وعقائد العلماء واتباعهم لا يتوافق مع ما جاء في الكتب المقدسة، وكثير ايضاً من العقائد العلمية الشائعة يتعارض مع العقائد الدينية . فالخلاف بين العلم والدين وان خفّت حدّته الجدلية لا يزال خلافاً اساسياً يعمل عمله في حياة الناس صامتاً وهو متخذ الوجه المعبّر عنه بالسؤال: انتبع ما يقول به العلماء ام ما قال به الانبياء ؟ وكثير مما يقول به علماء اليوم ينافي ويعارض التعاليم والشرائع الدينية الصريحة في مقاها التي لا تحتمل تأويلاً مجازياً رمزياً والتي لا تختلف عليها الاديان الشائعة . والمتعلمون لا يزالون في حيرة بين العلم والدين . وامر العقيدة ليس امراً بسيطاً كما يصوّره بعض خطباء هذا العصر ووعّاظه الذين يزعمون انهم قد آلفوا ووفقوا بين العلم الحديث والدين ، او كما يزعم بعض دعاة المبادىء السياسية بقولهم ان العقيدة الدينية هي شيء بين الانسان وربه لا دخل لها في معاملاته الاجتماعية . العقيدة هي الدافع والدفة اللذان يعيّنان ويوجّهان تصرّف الانسان في حياته . وتصرّفه يعيّن له ويحتّم عليه كل ما يصيبه من صحة او مرض ، من لذة او ألم ، من همّ او صفاء ، من خلاف او وئام ، من حرب

او سلم .

هذه هي بعض آثار العلم الحديث البارزة في حياة هذا الجيل. فما هي خواص وميّزات التفكير العلمي الذي كان له ذاك الاثر ، وما هو محكّ صحته ؟

اوّل مبادىء المعرفة الصحيحة في العلم الحديث هو مبدأ المشاهدة العيانية والاختبار بالحواس الجسمانية وهي في حالتها السويّة لتبيّن الامور كما هي في الواقع. ويشترط اوّلاً التدقيق في المراقبة لازالة التوهّم . من رأى شبح انسان لحظة وتوهمه جنّاً يراه شخصاً اعتياديّاً بعد التدقيق في المراقبة . ولكنه لو انهزم من الخوف قبل ان يدقق نظره لظلّ كل حياته يعتقد انه رأى جنّاً. والشرط الثاني هو مراقبة العدد الكبير من الحوادث واعادة المراقبة بحيث تتواتر الشهادات قبل القول باقتران ظاهرتين اقتراناً لا ينفك . هذا الوجه من التفكير العلمي قد ساعد على ازالة الخرافات والعقائد الفاسدة . فالخرافات هي ان يقرن الانسان في معتقده اموراً ليست في الواقع مقترنة ، كأن يعتقد أن نعيق البوم والغربان يعقبه مصيبة او كارثة فحزن، او ان يعتقد انّ عملاً ما لا يوفّق فيه الى النتيجة المرغوبة ما لم يبدأ في يوم تكون فيه الكواكب والنجوم في الفلك على ترتيب معين ، او ان ذبح حيوان على عتبة باب بيت جديد قبل سكنه

يردّ الكوارث والاحزان عن البيت وساكنيه ، او ان تعليق نضوة حصان فوق المدخل يجلب الحظ للبيت . ومن هذا النوع من الخرافات كثير من العقائد السياسية والقومية التي من اجلها ملأ الناس جوّهم بالصخب واثاروا الخلاف وسفك الدم .

المبدأ الاساسي الثاني الذي شيد عليه العلم الحديث هو القياس بالمقاييس ، وهو مكمّل لمبدأ المشاهدة العيانية . انّ استنباط المقاييس الدقيقة وضبطها والتدقيق في عمليات القياس قد استظهر كثيراً مما كان خافياً على المشاهدة العيانية بالحواس العزلاء ، وجعل في الامكان صنع معظم الادوات والاجهزة والآلات التي يتعذّر صنعها من دون المقاييس الدقيقة. وقد ادّى تطبيق المقاييس وعمليات القياس على المقادير المتغيرة الى استنباط القوانين العلمية التي يقال لها القوانين الطبيعية ايضاً . بالمشاهدة العيانية يتبيّن اقتران ظاهرتين وتلازمهما تلازماً لا ينفك ، تسمّى الواحدة سبباً والثانية نتيجة. وبالقياس يتبيّن ان مقدار السبب يتغير فيتغيّر مقدار النتيجة تبعاً له . ثم بالتفكير المجرّد على نحو التحليل الرياضيّ تُمَحّص المقادير المَقيسة فيتبيّن ان بين مقدار السبب ومقدار النتيجة علاقة ثابتة لا تتغير مهما تغيّرت مقاديرهما . ويعبّر عن تلك العلاقة بمعادلة رياضية هي النصّ بلغة الرياضيات الرمزية للقانون

« الطبيعي » . فالقوانين الطبيعية هي علاقات بين الهويّات المحسوسة خافية على الحواس ولكنها أُدرِكت بالتفكير المجرّد المبنيّ على نتائج المشاهدة العيانية والقياس . وتطبيق القوانين على العمل يكون باعادة الترجمة من الرموز المجردة في معادلة رياضية الى الهويات المحسوسة في عالم الحسّ . وتطبيق القوانين العلمية بهذه الطريقة يؤدّي الى معرفة النتائج قبل الشروع في العمل والى معرفة الاسباب التي يجب التسلّط عليها للوصول الى الغاية المنشودة .

هذه لمحة مختصرة للسلسلة الفقرية في التفكير العلمي — وهي اكتشاف القوانين الطبيعية وتطبيقها . النظريات والعقائد العلمية قد نشأت من البحث عن الصلة الباطنة التي تربط النتيجة بالسبب الظاهرين للحواس ، وعن تقصّي الاسباب الباطنة للنتائج الظاهرة . مثال بسيط على ذلك : — العلاقة بين مقدار الارتفاع في درجة الحرارة — وهو السبب — ومقدار التمدد الملازم له في مادة كالحديد — وهو النتيجة — هي قانون طبيعي يمكن اكتشافه وتطبيقه بالاختبار العملي في حيّز الحواس الظاهر . والسبب والنتيجة كلاهما ظاهران وقابلان للقياس . ولكن ماهية الحرارة وكيفية اتصالها بمادة الحديد بحيث تُحدِث فيه تمدداً ، والفرق في بناء المادة الداخلي بين الحديد الذي

يتمدد بالحرارة حين ينصهر والماء الذي يتمدد بالتجمّد، كل ذلك باطن بالنسبة الى الحواس لا يمكن الوصول الى معرفته بالمشاهدة العيانية بل بالاستنتاج. والجواب عن ماهية ذلك هو نظرية علمية.

النظريات العلمية هي كالتشخيص الطبي لمرض داخليّ من اعراضه الظاهرة. انما يمكن التحقق من صحة التشخيص بعملية جراحية. ولكن باطن المادة والطاقة لم يتوصل احد من العلماء الى مشاهدته مشاهدة عيانية مباشرة ولو في بعض الحالات فيمكنه التحقق من صحة الافتراضات عن باطن المادة والاستدلال على اساليب الاستنتاج تؤدي الى المعرفة الصحيحة في كل الحالات. لذلك تظل الحقيقة الباطنة القصوى للمادة والطاقة والكون الحسي خارجة عن مدى التفكير العلمي. ان ما يقول به العلم الحديث عن ماهية المادة وذراتها وذيراتها كالبروتون والالكترون والنيوترون والقوى التي تربطها بعضها ببعض، وعن ماهية الحياة والعقل — كل ذلك ليس سوى نظريات تشخيصية.

ان بعض الظاهرات الطبيعية قد اكتشف العلماء قوانينها وطبقوها الى درجة من الضبط يُعتَمد عليها. وفي هذا النوع من الظاهرات السطحية مجال واسع للبحث عن الاسباب والنتائج الظاهرة قبل ان يصل الباحث الى السؤال عن الصلة الباطنة والحاجة الى معرفة شيء عنها. وتوجد ظاهرات ليست القوانين

الموضوعة لها ذات وضوح وضبط كافيين . وهناك ظاهرات لا تُعرف لها قوانين علمية ، وبداية البحث فيها توصل مباشرة الى اسباب باطنة تجب معرفتها قبل الوصول الى قوانينها. الظاهرات الحيوية والنفسية معظمها من هذا النوع . والبحث الاختباري عنها باسلوب العلم الحديث لا يؤدي الى قوانين بل الى استنتاجات نظرية وهي «النظريات العلمية» التي تختلف باختلاف الباحثين في تفكيرهم وتنير باكتشاف ظاهرات جديدة ، ولكن الحقيقة التي نحاول تفسيرها بالنظريات هي ازلية لا تتغير ولا تتوقف على درجة معرفتنا . وكثيرون من الباحثين انفسهم ينقصهم الاساس الفلسفي لعلمهم فلا يميّزون بين هذا النوع من الظاهرات والنوع البسيط الذي في علم الفيزياء ويتوهمون ان كل بحث اختباريّ يؤدي الى نتائج صحيحة يعتمد عليها . فهم بذلك يُحِلّون النظريات محل القوانين الاختبارية. ولا تسل عن جمهور المتعلمين المتابعين الذين يقبلون بكل ما يقول به العلماء من دون تمحيص قبولاً مبنيّاً على اعتقادهم بعصمة العلم الحديث واسلوبه .

هذا موضوع يطول شرحه بحيث يتمكن المتابع من استجلائه. وقد ذكرنا هذا المختصر لنبيّن منشأ النظريات والعقائد العلمية والوهم الذي نشأ معها. وكان من نتيجة ذلك أنْ شاع في

هذا العصر عقائد علمية مضلّة انما موهومة انها هي الحقيقة ذاتها. ان عقيدة تنازع البقاء وبقاء الأنسب مثلاً هي من الاوهام العلمية المبنية على التفسير الباطن لمشاهدات سطحية . وقد اساء معظم المتعلمين فهمها واساؤوا اكثر من ذلك في تطبيقها بأن ابتدعوا بناءً عليها نظرية ثانية هي ان من سُنّة الطبيعة والحياة ان يأكل القويُّ الضعيفَ ! وبذلك يبررون باسم العلم ما لا يبرّره دين او ضمير !

التفكير العلمي لن يوصل الانسان الى معرفة سرّ النفس والحياة ومعنى الحياة الفردية وغايتها والسلوك الذي يوصلها الى محجّتها. ان لم يكن بالتفكير العلمي فبأيّ تفكير نصل الى تلك المعرفة التي تتوق اليها نفوس المفكرين. سمّه خيالاً او وحياً او الهاماً ، ولذلك حديث آخر في العلم والمعرفة . لكن الاسترشاد بالمعرفة العلمية في تنظيم وتدبير الحاجات المادية في الحياة ضروري لكل شعب وفرد في كل زمان ومكان . ولا يزال في كثير من نواحي الحياة وعند جماعات عديدة من الناس — في الشرق اكثر مما في الغرب — مجال واسع لم تعمّه المعرفة العلمية فيجب نشرها وتطبيقها لكي يصطلح بها ركن من اركان حياة الجسد. ان سعي الانسان لاكتشاف القوانين الطبيعية ونظام الطبيعة ولتدبير اعماله بحيث تتوافق مع نظام الطبيعة ولا تعاكسه كان المسلك

الذي جاءه منه اعظم النتائج والفوائد لحياته الزمنية . وعلاوة على ذلك فقد تخللت فكرةُ النظام واطاعة القانون عقليةَ الشعوب والجماعات التي تأثرت بالتفكير العلمي الحديث ، وقد ظهرت آثاره في حياتهم بتدرّبهم على النظام والترتيب والتدبير وباحترامهم النظام والقانون في حياتهم الاجتماعية .

لقد انتشر العلم الحديث في بعض الاوساط العربية انتشاراً واسعاً عمّ عدداً كبيراً من جماعات خاصة ، ولكنه كان عند الكثيرين كانتشار الحمرة على الشفتين . فحيث يجب ان نطبّق التفكير العلمي على اعمالنا ترانا منقادين راضخين للتقاليد الفاسدة المؤسسة على الخرافات ومنجرفين في تيار المصالح الفردية النفعية التي مثل كل شهوة دنيوية تزيغ الانسان عن المعرفة الصحيحة وعن الحق. وحيث ينبغي ان نتبع تعاليم المعرفة العليا التي استنار بها العالم بواسطة انبياء الشرق ترى المتعلمين بيننا يتباهون بانهم تحرروا من تلك التقاليد والخرافات — على زعمهم — وقد استعاضوا عنها بالنظريات والعقائد العلمية المضلّة . ولهذا حديث آخر في العلم الحديث والتربية .

غاية العلم

هل للعلم الحديث غاية يقود الانسانية اليها ؟ أو هل هناك غاية يسعى اليها العلماء ويجرّون سواد الانسانية وراءهم ؟ وهل العلماء يوجّهون العلم الى غاية يبغونها أم العلم يوجههم ويهديهم الى هدف يسعون نحوه ؟ كثيراً ما نسمع في هذا العصر عبارات في هذا المعنى . منها ما يجعل للعلم كياناً شخصياً مستقلاً بذاته كأنه ذو ارادة وقوة وغاية شخصية . ومنها ما يرفعه الى مقام دين جديد يناظر الأديان التقليدية . فمن العبارات ما مؤداه ان العلم الحديث سيخلّص الانسانية من متاعبها وآلامها . ومنها ان الانسان بالعلم الحديث يتسلّط على الطبيعة فيذللها ويستخرج منها جميع حاجاته الى درجة الامتلاء . ومنها ان العلم الحديث سيؤدّي الى الخراب والدمار وانقراض المدنية على النحو الذي شاهدناه في الحروب الحديثة . ونحن نرى ان تلك العبارات وغيرها على نمطها المنزلقة عن ألسن بعض العلماء والكتّاب المتردّدة اصداؤها على شفاه متابعيهم تدلّ على تغبّش في فهم ماهية العلم ووجهته .

العلم هو صنع عقل الانسان . هو طريق العقل الى المعرفة عن الطبيعة التي تحضن الانسان فتغذّيه وتنميه أو تهيج عليه فتهلكه . ويمكن ان ننظر الى العلم من وجهة ثانية فنقول ان المعرفة العلمية هي تفتّح العقل لادراك النظام الذي يشمل الطبيعة بكل ما فيها من جماد واحياء . فالمعلومات عن الكون — المعلومات المنفردة والقوانين العامة التي تؤلف متن العلم — ما هي الاّ وعي العقل لنُتَف من النظام الشامل الذي تسير بموجبه جميع الكائنات . ومن هذه الوجهة نرى ان ليس للعلم كيان مستقل بذاته ولا قوام ولا وجود له الاّ بالعقل المفكّر . فالغاية ليست للعلم او فيه ولكنها في نفس الانسان . وقد تشترك وتتوافق فيها عدة نفوس فردية فتؤلف غاية اجتماعية . واذا خرجنا عن نطاق العلم الحديث وعن المتعارف بين الناس نقول بغاية كلية شاملة هي غاية القدرة المدبّرة التي انبثق منها نظام الكون والوجود . وعلى قدر توافق غايتنا مع الغاية الكلية الشاملة نتوجّه بالعلم الى ما فيه خيرنا وغبطتنا . وعلى قدر تناقض غايتنا مع الغاية الكلية الشاملة ننقاد بالعلم الى الخراب والدمار والالم .

ان حاجتنا الى العلوم الطبيعية هي الاسترشاد الى معرفة نظام الطبيعة وتسيير انفسنا واعمالنا بالتوافق معه . اذا نحن

طاوعنا النظام نصل الى الغاية التي نبغيها . واذا خالفناه فالنتيجة التي نصل اليها هي الخيبة والالم بعد اجهاد النفس . لا يتسلط الانسان على الطبيعة إلاّ بمطاوعته اياها . واذا عاندها ينسحق. اذا جاءها عن طريق نظامها تنقاد له بجميع قواها وموادّها وخيراتها . واذا حاد او تاه عن النظام فهي صمّاء لا تجيبه وعاصية لا تدرّ عليه .

ان الغاية المباشرة والهدف الأول لدرس العلم الحديث هو معرفة النظام الذي تسري احكامه على الجماد وعلى الأحياء . وسيعود العلم في مراحله العليا بالانسان الى فهم حقيقة نفسه فوق حقيقة الجماد والنبات والحيوان ، والى معرفة نظام حياته الذي يتلاقى مع النظام الساري على غيره من الكائنات . تلك الغاية القصوى لا تزال ابعد مرمىً من المرحلة الحالية التي وصل اليها العلم إنْ في استكشاف المطويّ او في نشر وتعليم ما قد اكتُشف . وما ذلك من تعذّر توجيه النظر الى تلك الغاية ولكن من الانهماك في غايات الدنيا المادية .

اذا استقصيت العلوم الطبيعية الرياضية والعلوم والأعمال الهندسية والصناعية والعمرانية وعلوم الأحياء وجدت ان استقاء العلم هو الكشف عن مجاري الطبيعة والحياة الخافية عن المشاهدة البدائية ، وعن كيفية تسلسل الأسباب والنتائج وتعاقبها ،

وذلك على نظام مضبوط ثابت لا يتغير ولا يتبدّل فيمكن الاعتماد عليه ، ووجدت ان تطبيق العلم على الاعمال العمرانية والحيوية هو تسيير القوى الطبيعية والحيوية لخدمة الانسان بتوجيهها في مجاريها وعلى سُنّتها لا حسب اهواء الانسان . فهو مضطر ان يطاوع الطبيعة للتسلط عليها واستخدام قواها والتمتع بموادّها وخيراتها . من له غاية يبغيها من الطبيعة ويجهل سُنّتها فلا يسلك طريقها ولا يطاوع نظامها فهو كمن يريد ان يضرم ناراً ولكنه يصب عليها ماءً وتراباً او اذا اراد اطفاءها صبّ عليها مادة ملتهبة . او هو في معالجة الأمور كمن يناطح صخراً اصمّ .

الانسان البدائي كالحيوان يجد كل حاجاته الأساسية تقريباً جاهزة تقدمها له الطبيعة . ولكن السواد الأعظم من بني الانسان في هذا العصر قد اصبح بعيداً عن تلك الحالة البدائية . فهو مضطر ان يزرع ويحصد ، ثم ان يطحن ويعجن ويخبز ، وان يغزل ويحيك ، وان ينجّر ويحدّد ويبني ، وان يستخرج المعادن من الأرض وغيرها من المواد ثم ان يعالجها لكي تصبح صالحة للحاجات المختلفة . وهو في حاجة الى القدرة الميكانيكية والحرارية والكهربائية لتحريك الآلات الثابتة ووسائل النقل . وهو مضطر الى معرفة مقوّمات الحياة والصحة والاثمار والنتاج في

النبات والحيوان ... الى آخر ما هنالك من الحاجات الثانوية وما بعدها المتدرجة في مراتب اللزوم ، حيث كل حاجة هي واسطة لحاجة اعظم منها لزوماً . ومع ان الحاجات متدرجة في مراتب اللزوم ولكنها قد اصبحت كلها تقريباً ضرورية بحيث اذا تعطّل انتاج احدى الحاجات تعطّلت او شُلّت مكينة الانتاج والتوزيع الصناعي والزراعي . ولاستحضار كل مادة وصنع كل حاجة طريقة مؤلفة من سلسلة اعمال منظّمة على ترتيب معيّن وعلى توافق مع القوانين الطبيعية . وقد كانت المعرفة العلمية مرشدة الانسان الى تنظيم اعماله وترتيبها للوصول الى حاجاته المادية . فالانسان الحديث في هذا العصر ينظم خطة لكل عمل بمنتهى الدقة فتأتي نتائج اعماله طبق ما ينتظر حين يرسم الخطة ويضع التصميم وقبل ان يبدأ بالعمل . ولولا ذلك لما تمكن من القيام بالاعمال الهندسية والصناعية والزراعية الى الدرجة التي تميّز بها هذا العصر . وقد اصبح لازماً لازباً على الأفراد والأقوام ان يجاروا تيّار هذا العصر في الصناعة والانتاج المؤسسين على المعرفة العلمية الحديثة . وان لم يفعلوا ذلك وجدوا انفسهم مفتقرين اذلاّء تجاه بقية الأقوام لأن مدخولهم من نتيجة عملهم لا يكافىء مصروفهم على الحاجات الجديدة التي لم يعد لهم غنى عنها . ان تطبيق المعرفة العلمية على

اعمال الصناعة والزراعة قد حسّن انواع المنتوجات وزاد مقدار الانتاج اضعاف ما كان عليه ايام الجاهلية الحديثة قبل عصر العلم الحديث . نمثّل على ذلك في انتاج الحنطة والحديد على الطريقتين الجاهلية والعلمية الحديثة .

اما زراعة الحنطة على الطريقة الجاهلية فقد ألفنا مشاهدها في محراث يجرّه جمل وحمار يجمعهما نير واحد ، وهو محراث لا يكاد يشقّ الأرض اكثر من خمش سطحي ، وفي الحصاد باليد والمنجل ، وفي البيادر التي يخيّم عليها عمل بدائي بطيء مملّ . واما البذار فهو عين الحنطة جيلًا بعد جيل يفرزها الفلاح عن البيدر من دون انتقاء . وأما السماد فهو من قوة الأرض الطبيعية الخفية التي تتجدد بترك الأرض سنة او اكثر من دون انتاج . واما الطريقة الحديثة فقد شاهدنا شيئاً منها في عمل الآلات الميكانيكية للحراثة ورش البذار وللحصاد والدراسة ، وفي التحليل الكيميائي للتربة والسماد . واما تحسين البذار فقلّ منا من يعلم عنه شيئاً يذكر وهو من اعظم الاعمال اهمية في تحسين الانتاج وزيادة مقداره . يعرف معظم الفلاحين بضعة انواع من البذار كل منها معروف باسم الاقليم الذي ينتجه . وقد يخطر لبعضهم سنة من السنين ان يغيّر نوع البذار . اما كيف ظهرت تلك الأنواع وهل كانت منذ بدء الخليقة فهو

أمر لم يعلم الفلاح عنه شيئاً حتى استظهره البحث العلمي الحديث. فقد تبيّن للمنقبين ان الطبيعة تنتج من حين الى آخر فرداً يختلف في بعض صفاته عن النوع الذي تحدّر عنه ويورث صفاته الجديدة لنسله، وذلك في النبات والحيوان. ولم يكتفوا بترقّب الطبيعة وانتظارها مدة قد تكون قروناً عديدة حتى تنتج لهم نوعاً جديداً من البذار يمتاز عن غيره. وكانوا قد اكتشفوا تفاصيل التلقيح الطبيعي وناموس الوراثة في النبات والحيوان، فراحوا يلقحون نوعاً بنوع آخر على اجيال متعاقبة وينتقون من كل جيل نوعاً قد اختلف في بعض صفاته عن اسلافه حتى توصلوا الى نوع له الصفات المطلوبة وهي في حالة قد اصبحت اصيلة قابلة للوراثة. وقد توصلوا بهذه الطريقة الى انواع جديدة من البذار تجمع في نفسها الصفات المرغوبة في نوعين او اكثر جُمع بينهما بالتلقيح الاصطناعيّ وتأصلت بالانتقاء الارادي تبعاً لقانون الوراثة. نوع من البذار قويّ الصحة لا تفتك به الآفات وهو يتوافق في تدرج نموّه مع مناخ الاقليم ولكن غلته قليلة الى درجة لا توفّي استثماره. ونوع آخر كثير الغلة ولكنه ضعيف المناعة ضد الآفات، يجمع بينهما فينتج نوع كثير الغلة يقوى على الآفات وقلما يمحل بسبب عدم موافقة المناخ له فتكون عنه سنة بعد سنة اضعاف

غلة كل من سلفيه . وهذا عمل لا يقدر عليه الفلاح الفردي ، فهو عمل اجماعي تختص به فرقة من العلماء قد كرّسوا نتيجة عملهم لمساعدة الفلاحين من بني قومهم .

واما استخراج الحديد على الطريقة الجاهلية فقد كلّف لبنان على عهد اميره بشير الشهابي قسماً عظيماً من غاباته الثمينة الشهيرة منذ اقدم العصور ثمناً لحدو الخيل وصنع الآلات اليدوية البسيطة من معاول ومحاريث وخناجر وسيوف. ولو أبقي على تلك الغابات لكان منتوجها السنوي في عصرنا هذا كافياً لشراء ما يستورده لبنان اليوم من الحديد وهو في السنة الواحدة قد لا يقل عن الف ضعف ما انتجه الامير بشير في كل سني حكمه .

وبعد مرور نصف قرن على عهد الامير بشير ترقت صناعة استخراج الحديد في اوروبا واميركا تبعاً لتطبيق مبادىء العلم الحديث ترقياً عظيماً ولكنه متوسط بين ما هو عليه اليوم وما كان عليه قبل مئة سنة . ولما دخل كرنيجي على صناعة استخراج وسبك الحديد ادخل على مسابكه مختبراً كيميائياً مع بضعة اختصاصيين في التحليل الكيميائي. فضحك منه مناظروه ومزاحموه وعلى الاخص حين اقدم على شراء كل مناجم الحديد التي كانوا هم قد خسروا في استثمارها. ولكن سرعان ما ادركوا جهلهم حين تبيّن بالتحليل الكيميائي ان المناجم التي اهملوها فاشتراها كرنيجي

بالبخس الاثمان كانت اغنى المنـــاجم في الحديد. وكان قد تبيّن بالتحليل الكيميائي ايضاً خطأهم في طريقة استخراج الحديد بحيث كان يُتلف ويهدر قسم عظيم منه. واصبح كرنيجي بعد ذلك ملك الحديد والفولاذ في اميركا. فحذا حذوه مناظروه .

اما اليوم فكل صاحب صنـاعة واسعة له مختبراتـه الخاصة وعلماؤه الاختصاصيون يبحثون وينقبون بطريقة البحث العلمي الحديث عن المواد الجديدة والطرق الجديدة لزيادة الانتاج وتقليل كلفته. وكذلك الجامعات والمستشفيات وبعض دوائر الحكومات المستنيرة. لكل منها مختبراتها وفرقة من اساتذتها منصرفون الى التنقيب عن كل جديد يوسعون به المعرفة العلمية وكيفية تطبيقها على زيادة الانتاج وعلى شفاء الانسان من امراضه وتقوية مناعته وتحسين حاله في دنياه . هذا من الجهة الواحدة . اما من الجهة الثانية فهم يوجّهون المعرفة العلمية لصنع الاسلحة واتقان طرق القتل والهدم والتخريب والتدمير .

هذه هي الوجهة البارزة لغـاية الانسان الاجتماعية من العـلم الحديث. وهي غاية يناقض فيها الانسان نفسه. ومنشأ هذا التناقض هو شهوات الانسان الزائغة عن طريق الحيـاة الصالحة وسُنّتها السويّة. لكن الانسان حين يستجدي الطبيعة يضع ميوله الزائغة

جانباً ويدنو منها ممتثلاً لنظامها فتغدق عليه من خيراتها . ومن ثمّ يختلف الافراد . فمنهم من يجعل عطية الطبيعة تقدمة لاله الخير والسلام . ومنهم من يقدّمها محرقة لاوثان اوهامه .

حدود العلم

الى ايّ حدّ في المعرفة الصحيحة يوصلنا العلم الحديث ؟ او الى اي حدّ يمكننا ان نصل بواسطته ؟ سؤالان يختلفان تبعاً لما يتراءى لنا من وجهة النظر التي نتخذها . الاول يتوافق مع الوجهة التي ترينا العلم كأنه قوة خارجة عن الانسان تسيّره معها. والثاني يتوافق مع الوجهة التي تبيّن لنا ان العلم هو طريق العقل الى المعرفة ، او هو تفتح العقل لادراك النظام الذي يشمل الكون بما فيه من الكائنات ، او هو وعي العقل للنظام والطريق المؤدّي الى ادراكه .

والمعرفة هي القدرة للتسلط على قوى الكون التي تؤثر في حياة الانسان وحالاته النفسيّة وتعيّن مصيره . فاذا وعينا نظام تلك القوى تمكّنا من توجيهها وتوجيه انفسنا معها لا الى الغاية التي تشوّقنا اليها اهواؤنا ولكن الى الغاية التي تتوافق مع غاية القدرة الكلية الشاملة التي تدبّر الكون بما فيه من جماد واحياء. وليس للانسان اغتباط وسعادة ابديّة الاّ بفناء ارادته وغايته الشخصية في ارادة القدرة الالهية التي منها انبثقنا واليها مصيرنا .

وليس الفناء اضمحلالاً كما يسيء فهمه وتفسيره الكثيرون من العلماء والكتّاب – قدماء ومعاصرين – ولكنه توافق النفس الفردية مع النفس الكلية الشاملة في جميع صفاتها بحيث تصبح غير قابلة للتمييز عنها . وتشبه النفس في تدرجها الى حالة الفناء في الروح الالهي سلكاً متوهّجاً في مصباح كهربائي موضوع امام نار اوسع منه امتداداً . فتميّز العين شكله ولون الضوء المشعّ منه،وهو في بدء توهجه احمر.وكلما قوي التيار الكهربائي فيه يزداد التوهج شدّةً ويتغيّر اللون الى اصفر ذهبي فابيض فضيّ . فاذا نظرت العين اليه وهو امام النار تظل تراه وتميز شكله حتى يصبح لون ضوئه تبعاً للتيار الذي يجتازه مماثلًا لضوء النار المحيطة به.حينئذ يختفي السلك عن بصر العين فلا تميزه عن النار ولا تراه.وهو في تلك الحالة قد فني في النار التي تحيط به.

حين نعي نظام القوى التي تؤثر في حياتنا من حيث لا ندري نصبح مخيّرين في امر نفوسنا فنتمكن من توجيه انفسنا الى الغاية المتوافقة مع الغاية الكلية فالى الاغتباط والسعادة الدائمة . واذا جهلنا النظام فنحن مسيّرون من جهة باهوائنا ومن الجهة الثانية بقوى النظام نفسه التي تصدمنا وتردّنا عن غاية اهوائنا.وفي كل صدمة وردّة خيبة وألم للنفس الفردية . وما خيبة الانسان والمه في المرض والخسارة وفي تحطيم مطامحه الدنيوية غير صدمة النظام

الكوني الشامل الذي يردّه عن غاية شهواته الزائغة وينبّهه بواسطة الالم انه تائه عن الطريق السويّ. ويصحّ هذا على الاقوام والجماعات البشرية كما يصحّ على الافراد.

هل العلم الحديث يوصلنا الى المعرفة التي بها نصبح مخيّرين في امورنا مغتبطين بسعادة دائمة. ام للعلم حدود لا يمكننا ان نتعدّاها؟ فاذا اردنا اجتيازها علينا بمعرفة عليا تبتدىء حيث تنتهي المعرفة العلمية. ولا نعني بذلك اننا لا نلج باب المعرفة العليا حتى نصل الى نهاية المعرفة العلمية. فعلى الانسان ان يتدرج من بداية الطريق في مبادىء كلتيهما. ان الوجهة البارزة للمعرفة العلمية وغايتها البدائية هي ان تهدي الانسان الى اسهل الطرق واكثر الاعمال فعالية في استحصاله على خيرات الطبيعة. والمعرفة العليا تهديه الى تقديم عطية الطبيعة لوجه الله وفي سبيله تعالى وتبعده عن الاوهام التي تقوده الى تقديم العطية محرقة للاوثان التي يعبدها.

اننا لا نكاد نسمع في هذا العصر سوى صوت واحد ينادي بالمعرفة العلمية ويقول بانها هي وحدها المعرفة الصحيحة التي يعتمد عليها لا في معالجة الجماد والقوى الطبيعية المادية فحسب ولكن في التسلط على الحياة ايضاً بتوجيه القوى الحيوية في النبات والحيوان والانسان الى الصحة الحصينة ضدّ الامراض، وحتى الى

انتاج النسل بالصفات التي يريدها الانسان . وقد راح العلماء يطبقون اساليب البحث العلمي الحديث على العلوم الاجتماعية وعلم النفس وحتى على العقائد الدينية ايضاً. ومنهم من يقول بان العقائد والشرائع التي يتقيّد بها الانسان في تصرّفه وسلوكه يجب ان تمتحن صحتها بالاختبار العملي العلمي، لا ان تُقبل بناءً على انها منزلة او موحى بها الى احد الانبياء . ان وجهة النظر العلمية الحديثة هي مادية بحتة . والذين يدينون بها لا يرون من خلالها غير ذرات من المادة مترابطة بقوى مادية . ويفسّرون مظاهر الطبيعة وظاهراتها بتجمّعات وحركة الذرات التي يتركب منها الكون. ولا يعترفون بروح ذات قدرة تسيّر الكون حسب ارادتها او على طريقة خارقة خارجة عن الوجهة المحدودة التي ألِفوها من النظام وقالوا بانها هي كل النظام الشامل. ان وجهة النظر العلمية الحديثة تحدّد المعرفة العلمية ضمن نطاق الحواس والاختبارات الحسية ثم تزعم ان لا حدّ لما يمكن الوصول اليه بالطريقة العلمية .

على انّ بعض العلماء يؤمنون بقدرة غير منظورة بالحواس ويقولون بان المعرفة العلمية المؤسسة على الاختبار الحسيّ والتحليل الرياضي هي محدودة لا يمكن الوصول على طريقتها الى الكشف عن اسرار الحياة ونفس الانسان. ويقولون ايضاً بعوالم

غير منظورة وبانهـــا فوق مجال المعرفة البشرية . وبعض هؤلاء يؤمنون الايمان الديني التقليدي ، وبعضهم لهم نظراتهم وفلسفاتهم الخاصة التي قد لا تتوافق مع كل العقـــائد الدينية التقليدية . ولكنهم لا يعلمون صلة بين المعرفـة العلمية والمعرفـة الدينية العليا التي يؤمنون بها . فايمانهم بالمعرفة العليا هو عن غير وعي لاسلوبها واستقائها ولكن عن ثقة بالمعلم الروحي الذي جاء بهـا او عن شعور عميق لا يتمكنون من تحليله او تعليله .

لنعد الى المعرفة العلمية ونسأل: هل هي محدودة في موضوعها اي في الاشياء التي تنطبق عليهـا ؟ وهل لها حدود دون بعض المواضيع التي لا تصل اليها ولا تنطبق عليها ؟ وهل كلها معرفة صحيحة ؟ اي هل كل ما يقول بـه العلم الحديث يمكن الاعتماد عليه بحيث يوصل الى النتائج التي تنتظر من تنظيم العمل بموجب المعرفة العلمية ؟ لنَجلُ هذه الاسئلة بتوسيعها والتمثيل عليها .

الجماد هو اوّل المواضيع التي عالجها العلم الحديث وقد وصل الى الشيء الكثير من المعرفة الصحيحة عن قوانين المادة والطاقة . ولكن المعرفة العلمية لا توصلنا الى معرفة كل شيء عن الجماد . وكذلك عن النبات والحيوان . كلما تدرجنا في مراتب الكائنات هذه يضيق المجـال الذي تنطبق عليه المعرفـة العلمية وتزداد الاسئلة التي لا يمكننا ان نجيب عنها بتطبيق الطريقة العلمية . ثم

اذا سألنا عن نفس الانسان والغاية من وجوده وحياته على هذه الارض وعن الروح وعالمه غير المنظور فليس للعلم الحديث ما يجيب به غير جواب اصحاب العقيدة المادية. فهم يقولون بان كل ذلك وهمٌ ، ولا وجود ولا حقيقة لشيء في نظرهم غير ذرات المادة والطاقة المادية. ومع ان اصحاب هذه العقيدة يدّعون بانهم لا يقبلون بقول من دون البرهان العلمي لكن عقيدتهم هذه لا تستند الى برهان علمي .

وقد يستغرب الكثيرون سؤالنا عن صحة كل ما يقول به العلم الحديث الذي اصبحت له في هذا العصر منزلة تكاد تكون اعظم من منزلة التعاليم المقدسة عند الذين يعتقدون بتنزيلها الحرفي ... ليس كل ما يقول به العلم الحديث صحيحاً . وليس لكل ما هو صحيح في المعرفة العلمية نفس الدرجة في الضبط واليقين . ان بعض القوانين العلمية في الفيزياء والكيمياء تأتي نتائج تطبيقها العملي متقاربة من النتائج المنتظرة المحسوبة الى درجة لا تختلف اكثر من واحد في الالف او حتى ادقّ من ذلك. وبعضها يتباعد الى خمسة او عشرة في المئة. اما كثير من القوانين المزعومة في علم النفس وعلم الاجتماع فقد تشط نتائجها الفعلية مئة بالمئة او اكثر عن النتائج المنتظرة المحسوبة بموجب تلك القوانين. ومع ذلك يقولون هي معرفة علمية .

ثم ان كثيراً من احوال الجماد ما زال مستعصياً لم يتوصل العلماء الى استنباط قانونه العلمي . ونحن نقول بانه سيبقى مستعصياً لا ينقاد الى الطريقة العلمية. وقد احلّوا في هذه المرحلة من البحث الافتراض والاستنتاج النظري محل القانون المستنبط استنباطاً مباشراً بالقياس الدقيق. وبالتدرج من الجماد الى النبات فالحيوان فالانسان تقل امكانية استنباط القانون وتقل درجة ضبطه ايضاً فيزداد متن العلم افتراضات واستنتاجات نظرية وعقائد . وقد دخل على المعرفة العلمية كثير من الافتراضات النظرية والعقائد مما هو في نظرنا على مستوى عقلي واحد مع اوهام العصور الجاهلية وخرافاتها مع ان العلم الحديث كان في بدء نشأته من اشد العوامل تأثيراً في نبذ الخرافات والتقاليد الفاسدة المبنية عليها . ولكنه ضرب على بعض عقائد المعرفة الباطنة العليا ايضاً وزجّها في صف الخرافات .

ولا بدّ لبحث الحدود التي لا يتعدّاها العلم الحديث من معرفة الاسس التي ترتكز عليها طريقته . واول حجر في اساسها هو المشاهدة العيانية بالحواس الجسمانية وهي في حالتها السويّة. فكل ما يُدرك بالحواس يُعتبر ان له وجوداً حقيقياً . اما الكائنات الخفية التي لها آثار ظاهرة للحواس كالكهربائية فتُدرس بآثارها الظاهرة . وما قوانينها غير العلاقات بين ما هو ظاهر من

آثارها. امّا ماهيّة الكهربائية وحقيقتها القصوى في ذاتها فما يقال عنها هو من باب الافتراضات النظرية . والقوة المغناطيسية لولا تأثّر الحديد والمجاري الكهربائية بها لما اعترف بها العلماء . ولو قال احد بان له حاسة سادسة تتأثر بالمغناطيس مباشرة كما يتأثر الحديد لقالوا عنه انه مختل القوى العقلية . على ان بعض العلماء لا ينكرون حقيقة وجود كائنات خفية بل يقولون بان معرفتها خارجة عن نطاق العلم الحديث كمعرفة الروح وعقل الانسان ونفسه التي تستقل في كيانها بعد انحلال الجسد .

ويتلو المشاهدة العيانية القياس بالمقاييس المادية وهي مقاييس الوزن والقوة والامتداد في المكان والامتداد في الزمان. فخواص المادة والطاقة وقوانينها يعبَّر عنها بالعلاقات الثابتة بين المقادير التي تقاس بالمقاييس . هنا ايضاً كل ما يتعذر تطبيق المقاييس العلمية عليه فهو خارج عن نطاق المعرفة العلمية كالعواطف والحالات النفسية — كالمحبة والبغض والخوف والشجاعة والتقوى والفضيلة . وقد حاول بعض العلماء درس الحالات الجسدية التي تقترن مع الحالات النفسية واتخاذ تلك دليلاً على هذه على نحو مماثل لدرس الكهربائية بآثارها الظاهرة. فنشأ مذهب علمي يقول بان العقل والحالات النفسية هي ظاهرات تفاعلات بين ذرات المادة التي يتألف منها الجسد. وعلى الاخص هي نتائج الافرازات

الداخلية من الغدد الصماء. وهي كألسنة لهيب النار التي ترقص ما دامت النار مشتعلة. وما هذا غير وجهة من المذهب المادي.

اما القول بحقيقة الروح والعقل ونفس الانسان التي هي الحقيقة الاساسية في الكون وعليها تستند حقيقة المادة والطاقة واليها تُنسب كل المعرفة، فهو خارج عن حدود العلم الحديث لا تصل اليه المعرفة العلمية.

ان يكن الاختبار الحسي بالمشاهدة العيانية والقياس اساس المعرفة العلمية لكنه لا يوصل الى المعرفة من دون التفكير المجرد والخيال اللذين يبيّنان العلاقات بين الهويات المحسوسة وهي علاقات لا تدرك بالحواس بل بالتفكير المجرد الناحي نحو الاستقراء والاستنتاج والتحليل الرياضي. ان هذا النوع من التفكير الذي يتمم ويكمّل الاختبار الحسي في استقاء المعرفة العلمية هو اسمى ما تفتّح في الانسان من قواه العقلية. ولا تزال في الانسان قوى عقلية في حالة الهجوع غير متفتحة تسمو على درجة التفكير الحالي كما تسمو هذه على الاختبار الحسي. وحين تتفتح تلك القوى يتمكن الانسان من مشاهدة الكائنات الخافية عليه الآن مشاهدة عيانية مباشرة كما تدرك حواسه الآن الكائنات التي على مستواها. ويتمكن من متابعة القوى الباطنة التي تؤثر في حياته من حيث لا يدري.

قد كان امراً عجيباً ان يصل الانسان ببحثه العلمي الى المعرفة عن اقاصي الكون – عن النجوم والكواكب والسُدُم، عن تركيبها الكيميائي وحالتها الطبيعية، عن حركاتها وتعيين اوضاعها في اوقات معينة بحيث يتنبأ عنها بالدقة والضبط كما لو كانت على الارض في قبضة يده. وربما كان ذلك من الاسباب التي جعلته يتوهم ان المعرفة العلمية لا حدود لها.

ولكن اكثر عجباً من ذلك ان تظل معرفة الانسان عن نفسه كأنها في اقاصي الكون بعيدة عنه وهو غريب عنها. ان العقل لا يصل الى معرفة نفسه الاّ بتجرّده عن الحس بالتأمل الباطن. وما زالت المعرفة العلمية مؤسسة على الاختبار الحسي فلن تصل الى معرفة العقل ونفس الانسان. فحدود العلم الحديث هي حدود الحواس.

أساسيات المعرفة العلمية

ان اوّل الاختبارات المؤدّية الى المعرفة العلمية هو تميز عينيّة الاشياء وغيريتها، كما في قولنا: هذا هو عين الكتاب الذي قرأته، وذاك هو عين الشخص الذي تعرّفت اليه امس، وهذا هو عين الخاتم الذي فقدته العام الماضي، وهذه الشجرة هي غير التي كانت في هذا الموضع قبل عشرين سنة.

ثم تتدرج المعرفة من تميز العينية والغيرية في الاشياء الى تميز التشابه بين شيء وغيره. وقد يكون التشابه الى درجة الانطباق التام في الخواص الظاهرة للحواس بحيث لا نتمكن من اثبات عينيّة الشيء الواحد كما في عدم تمكننا من تميز زيد عن توأمه عمرو، او تميز عينية الافراد المتماثلة من المصنوعات التي تنتجها آلة صناعية حديثة. الى هذا الحد يكون تميز الاشياء بعضها عن بعض من دون ادراك علاقة او صلة بينها كأنّ كل شيء منفصل عن كل شيء آخر. ثم تتفتح الملاحظة لادراك الاقتران بين شيء وشيء آخر بمعنى ان مشاهدة احدهما او اختباره تثير انتظار مشاهدة الآخر مثل اقتران الالم مع مس النار وانتظار

المطر مع الغيوم المتلبّدة في العاصفة . ان الحيوان قد لا يميّز الفرق بين اقتران صوت الجرس مع الطعام واقتران الالم مع مس النار . لكن الانسان البدائي يميّز سبباً ونتيجة بين شيئين مقترنين وذلك في حالات بسيطة قليلة. وقد يعتقد احياناً باقتران شيئين ليس بينهما ارتباط النتيجة بالسبب . وهذا النوع من الاعتقاد هو من صف الخرافات. ان تميز علاقة السبب والنتيجة بين شيئين مقترنين هو بداية المعرفة العلمية على مستوى القوانين العامة .

ثم تتدرج المعرفة بعد تميز الاشخاص الى خلق فكرة الاصناف والاجناس والانواع والكليات والجزئيات وترتيب الاشياء وتعريفها بحسب التصنيف الذي يصبح مألوفاً . ويماشي التصنيفَ تميزُ العلاقات التي ترتبط بها الاشياء بعضها ببعض . ففي تعريف شيء تُضاف علاقات ارتباطه بغيره الى تحديده وتصنيفه .

ان فكرة القوانين العامة ومعرفة استنباطها وتطبيقها تؤلف متن المعرفة العلمية. وتتلو مرتبةَ القوانين العامة مرتبةُ النظريات العلمية التي لها وجهتان : اولاهما محاولة التعرّف الى سبب باطن له نتيجة ظاهرة مشاهدة او معرفة نتيجة بعيدة لا يمكن التوصل الى مشاهدتها. والوجهة الثانية هي نظم بعض القوانين الاختبارية العامة في قانون واحد يشملها كلها على نحو ما تشمل نظرية

الغازات قوانين الغازات المستنبطة بالاختبار العملي . والنظريات هي محاولة توسيع المعرفة الى المجاهل التي لا مسالك فيها لروّاد معرفتنا العلمية التي هي حواسنا .

هذه لمحة مختصرة تبين تدرّج المعرفة العلمية في مراتبها من الاختبار الحسي الذي يشارك فيه الحيوانُ الانسانَ الى التفكير المجرّد والخيال اللذين يتميّز بهما الانسان عن الحيوان. والمعرفة العلمية في جميع مراتبها مؤسسة على المشاهدة العيانية بالحواس الجسمانية ، وتمييز الكائنات العيانية عن الاشياء الوجدانية ، والاثبات بالاختبار العملي والتجربة المكمّلين بالاستقراء والاستنتاج والتحليل الرياضي ومبادىء الخيال . والامر الحريّ بالاشارة اليه في هذا المقام هو ان كثيراً من الكائنات والهويات الطبيعية التي لا يتمالك العلماء عن الاعتراف بهـــا هي غير قابلة للمشاهدة العيانية بالحواس كالكهربائية والمغناطيسية ، وكثيراً من الفِكَر الوجدانية نحسبها كائنات عيانية كالذرة المادية والذرة الوراثية ، وكثيراً من التجارب العملية اللازمة للتثبت من صحة المعرفة لا يمكن اجراؤها . والحواس قد تصوّر للانسان سراباً ، والمنطق قد يشط عن صراط المعرفة الصحيحة حيث التعميم بالاستقراء قد يتجاوز حدوده والتتبع بالاستنتاج قد يُهمل بعضهم تعديله اللازم باجتياز الحد بين طبقة وطبقة من الكائنات كمن يهمل امر تغيّر

اللغة والعملة لدى اجتيازه الحدود الفاصلة بين بلاد وبلاد .
والتمييز بين العياني والوجداني ليس له صحة مطلقة بل هو وجهة نظر تصحّ ضمن حدودها ، وهي فكرة قد بلغت اوجها في العلوم الطبيعية خصوصاً الفيزياء . وكان منتظراً من علماء السيكولوجيا المحدثين ان يبيّنوا الوهم المبنيّ عليه ذاك التمييز المطلق. ولكنهم اقتبسوه وراحوا يغالون في تطبيقه على علمهم حيث مجال تطبيقه اضيق مما هو في بقية العلوم ، وحيث ما هو صحيح ومفيد في علمهم يبدأ بالحالات التي تزول فيها وجهة النظر التي تميز الحد الفاصل بين العياني والوجداني ، اي حيث تزول الحدود الفاصلة بينهما. ولا مجال في هذا المقام لاكثر من الاشارة الى موضوع يقتضي بحثاً خاصّاً . فلنعد الى التدرج في اساسيات المعرفة العلمية من مبادئها الاولية .

ان تميز العينية والغيرية في الاشياء هو درجة في المعرفة على مستوى الاختبار الحسي ، لكن فكرة الاشخاص والانواع ، والجزئيات والكليات ، هي على طبقة التفكير المجرد فوق الاختبار الحسي . وكذلك ادراك وجود علاقة باطنة بين اشياء محسوسة هو على سلّم في التفكير المجرد يصعد به الانسان من طبقة الحس الى طبقة الفكر المجرّد المستغني عن الحواس . والانسان البدائي لا يدرك من العلاقات بين الاشياء سوى الاختبارات

الحسية المتعاقبة على الفور كلمس النار والم الاحتراق . ولكن ادراك العلاقة بين سبب ونتيجة متباعدين في الزمان والمكان او ادراك علاقة باطنة لا تشاهد بالحواس هو من درجة مَن بلغوا اسمى مراتب التفكير .

انها لمرحلة قد استغرقت دهوراً في حياة الانسانية من الحياة المحدودة بالاختبار الحسي الى الادراك العقلي في جوّ التفكير المجرّد الذي يدرك العلاقات الباطنة بين الاشياء المحسوسة . ولا يزال السواد الاعظم من البشرية ملء حياتهم الاختبار الحسي ، لم تتفتح فيهم قوى التفكير المجرّد لادراك العلاقات الخافية بين الاشياء الظاهرة لحواسهم الاّ الى درجة ضئيلة جدًّا . وقد غفل عن ذلك مروّجو نشر التعليم العالي للجمهور . كم وكم من طلبة التعليم العام يقصّرون عن فهم ابسط القوانين العامة العلمية لان فهمها يقتضي التفكير المجرد لادراك الصلة الباطنة بين الظواهر المحسوسة . ويظهر تقصيرهم على الاخص في حلّ ابسط الاعمال الرياضية والفيزيائية كما في العجز عن ترجمة قضية رياضية او قانون طبيعي الى المعادلة الجبرية المناسبة . فمنهم من اذا طلب منه حلّ قضية طبيعية فيزيائية لا يعرف اي قانون ينطبق عليها فيطبق قانون نيوتن ، مثلاً ، حيث يجب ان يطبق قانون ارخميدس . ان امثال هؤلاء يرون الاشياء منفصلة بعضها عن

بعض لا علاقات ولا صلات بينها . وكذلك انفسهم الفردية لا تزال ضمن حدودها الضيقة منفصلة عن بقية العالم .

التعريف والتحديد في العلم ينطويان على الكثير من التضليل ، اذ يوهمان المتعلم انه قد احاط علماً بالشيء المعرّف واستوعبه. والواقع ان ماهية كل شيء هي سرّ مغلق لا يمكن الوصول اليه بتعريف او بتحديد . ومهما يكن الشيء المعرّف بسيطاً او حقيراً فلا يحيط به العقل ويستوعبه حتى يحيط بالكون كله ويستوعبه. من يعرف ماهية ذرة المادة يعرف الكون. ولن يصل العلماء الى تعريف حقيقة الذرة حتى يصلوا الى معرفة حقيقة النفس ومعرفة الكون كله .

ان حقيقة تعريف شيء هي نسبته الى شيء آخر مألوف ، اي هي الكشف عن علاقة او صلة او وجه شبه بين الشيء المعرّف واقرب شيء اليه مألوف عند المتعلم . واذا زاد عن ذلك فيعود تعريف الشيء الى نفسه او يخرج عن كونه تعريفاً. فكأنّ الاشياء في الكون هي كالنقوش على بساط ، متصلة بعضها ببعض ، وكل نقشة تُعرَّف بصلتها مع النقشة التي تليها. والاستقصاء في التعريف يؤدّي اما الى الخروج عن الحدود الموجّه النظر اليها — اي المألوفة — فيخرج عن التعريف ، او الى العودة الى النقشة الاولى فيكون التعريف في النهاية تعريف الشيء بنفسه .

اما التعريف في العلم الحديث فقد اتخذ وجهة كاد الابهام فيها يكون تامّاً طاغياً على كل حيلة تكشف حقيقته . وقد ازدهرت مرحلة من مراحل العلم الحديث كان فيها هذا النوع من التعريف سائداً بحيث توهم العلماء انهم اصبحوا على عتبة الحقيقة القصوى والمعرفة التامة . وهو تعريف الاشياء بتركيبها من ذرة المادة وذرة الطاقة الكونية او محيطها . ولكنهم ما كادوا يقربون مما ظنوه نهاية المحجة حتى وجدوا انفسهم في جوّ لا معالم فيه . وقد نشأ على اثر الكشف عن حقيقة السراب الذي غرّهم نزعات جديدة في التعريف والتعليل وفلسفة اختبارات العلم الحديث . ومن جملة النزعات الفكرية الجديدة في علم الفيزياء نزعة تقول بتعريف الاشياء بالطريقة التي تقاس بها بكف النظر عن معنى اقصى واعمق من عملية القياس نفسها . فالطول هو بحسب وجهة النظر هذه ما يقاس بالذراع . والوزن هو ما يقاس بالميزان . اما عمليات قياس الطول والوزن والزمن فتعتبر اوليات من دون تعريف فلا تستقصى ماهيتها الى ابعد من العمليات ذاتها . وفي ذلك اعتراف صريح بتعريف الشيء بنفسه . ويتجلى ذلك باعادة تعريف الطول كما يلي : الطول هو ما يقاس بالذراع والذراع هو ما يقيس الطول ! فالتعريف من هذه الوجهة لا يدّعي ولا يوهم الوصول الى حقيقة الشيء المعرّف .

اما طريقة التعريف التي تبلورت في العصر العلمي المنصرم وبلغت اوجها مع وجهة النظر الميكانيكية ولا يزال لها تأثير عظيم في وجهة النظر العلمية على حسب ما يفهمها معظم أتباع العلم الحديث ، فكانت ناشئة عن اسلوب التحليل والتركيب في الرياضيات والعلوم الطبيعية . وطريقة التعريف هذه هي تعريف الاشياء بتركيبها من هوية اساسية واحدة هي ذرة المادة في محيط الاثير والطاقة الكونية . ولا يزال هذا النوع من التعريف شائعاً في كتب التدريس في الفيزياء والكيمياء وفي ابحاث العلوم التي اقتبست حديثاً اسلوب الفيزياء وهي علوم الاحياء والنفس. والذي يهمنا في هذا المقام هو انّ وجهة النظر هذه في تعريف الاشياء قد اخرجت العلماء عن حقيقة النفس والعقل وجعلت الحقيقة القصوى في ذرات المادة . ومن حيث ان النفس والعقل والفكر لا تنقاد الى التعريف بواسطة ذرات المادة والطاقة فقد اغفل ذكرها بالتدريج من علم النفس . والمغالون قد انكروا حقيقتها . وقد اصبح علم النفس والعقل محاولة فاشلة في استنباط قوانين تصرّف الفرد على اساس حركة الذرات التي يتألف منها الجهاز العصبي .

قد يشك الانسان في صحة ما تصوّره له اختباراته الحسية ، في صحة ما يرى ويسمع ويلمس . وهو على ذلك في الحالة النفسية

السويّة . ولكن من يشك في حقيقة نفسه فهو في حالة تشويش واضطراب فكريّ تناقض مقتضيات المعرفة الصحيحة . النفس والعقل لا يقبلان التعريف على نحو ما تُعرَّف الاشياء . ولكن النفس تختبر نفسها اختباراً مباشراً يأبى الشك . واختبار النفس لنفسها هو اساس لاختبار ما يظهر في بداية المعرفة خارجاً عنها. ان اساس المعرفة العلمية هو ما تختبره النفس ، فالاختبار هو المسند او الخبر والنفس هي المسند اليه او المبتدأ . وما زلنا في تفاهمنا لا نقبل خبراً من دون مبتدإ ولا مسنداً من دون ما يسند اليه ؛ فقبول الاختبار من دون المُختبِر هو نوع من الاختلال في العقل والتفكير . لا برهان من النوع المألوف على حقيقة النفس ، لان البرهان المألوف هو من نوع التعريف . ولكن البرهان الذي يتعالى على البرهان المنطقي ولا يخامره شك هو في الاختبار ذاته مقترن معه . وهو شعور عميق راسخ لا يقلقه شك ولا تتفتح في النفس معرفة من دونه .

كثيراً ما نسمع السؤال من المتأدبين المثقفين بالعلم الحديث ومن خريجي الكليات العلمية يقولون : وما هو برهانك ؟ اريد برهاناً علمياً عملياً قاطعاً نهائياً . وهذا يبين سلطة العلم الحديث على تفكير هذا الجيل مع الجهل العام حتى عند العلماء انفسهم عن اساس العلم الحديث ومجاله وحدوده . ليس البرهان العلمي

قاطعاً ولا هو نهائي. وليست المعرفة العلمية — او بالحريّ ما هو صحيح منها — سوى معرفة محدودة في قضايا تتوافق بعضها مع بعض ضمن مجال محدود. فاذا حصرنا تفكيرنا ضمن تلك الحدود ظهر البرهان العلمي كأنه برهان قاطع نهائي. ولكن اذا استقصينا المعرفة خارج تلك الحدود ظهر تقصير البرهان العلمي على نحو ما بيّنّا في استقصاء حقيقة الصورة الذهنية في الوعي العقلي. هل هي صورة صحيحة للكون ؟ ليس في العلم الحديث برهان على ذلك وليس في الامكان تحقيق ذلك بالبرهان العلمي .

كان البرهان عند العلماء والفلاسفة قبل تبلور التفكير العلمي الحديث الحلقة الاخيرة من سلسلة استنتاجات بدايتها اوّليّة تقبل من دون برهان بناءً على ان العقل يوجبها. وقد ظهر بتمحيص العلم الحديث ان بعض تلك الاوليات التي كان يُظَنّ انّ العقل يوجبها ليست سوى اوهام . وقد بقيت طريقة الاستنتاج اداة فعّالة في العلم الحديث ، لكن تمحيص صحة الاولية او صحة النتيجة النهائية بالاختبار العملي قد حلّ محلّ القبول بها بناءً على مجرّد ايجاب وقبول العقل لها. وقد نظّم التفكير الاستنتاجي عدداً من العلوم قبل وبعد نشوء العلم الحديث كالهندسة الاقليدية والميكانيك والبصريات والكهربائية. ومعنى ذلك ان القوانين المتعددة في كل علم ، المستقلّ بعضها عن بعض في الظاهر ، المستنبطة ، كل منها

على حدة ، بالاختبار العملي ، قد وُصِلَ اليها بالاستنتاج ايضاً من مبادىء اولية قليلة العدد حيث لكل علم مبادئه الاولية الخاصة. واكمل مثال لذلك هو الهندسة الاقليدية حيث كل القضايا مستنتجة استنتاجاً من الاوليات المعروفة في ذلك العلم. والقضايا الهندسية ما هي غير قوانين طبيعية في الابعاد والاشكال . ولا تزال هذه النزعة عامّة قوية في علم الفيزياء النظري الحديث حيث الجهود متجهة لتوحيد كل العلوم بالتفكير الاستنتاجي وذلك باستنباط مبادىء اولية عامة تُستنتج منها كل قوانين الميكانيك والحرارة والضوء والكهربائية ، وحيث لكل قانون معادلة رياضية تعبّر عنه. أما المعادلات القليلة العدد او المعادلة الواحدة المعبّرة عن المبادىء الاولية ، التي يسعى الى تأليفها علماء الفيزياء ، فهي امهات المعادلات اذ منها يتولد بالاستنتاج معادلات كل القوانين على نحو مماثل لاستنتاج كل القضايا الهندسية من مبادئها الاولية. ان هذه النزعة الفكرية تمثل جهوداً عقلية جبارة ، فهي تحاول ضم القوانين العامة في قانون واحد شامل مثلما يضمّ القانون الواحد عدداً لا يحصى من الحالات الخاصة . وقد ادّت هذه النزعة الى نتائج باهرة جعلت للبرهان العلمي عن طريق الاستنتاج مدعوماً باثبات الاختبار العملي للاوليات والنتائج ثقة وسلطة عظيمتين . وعلى قدر النجاح العظيم الذي كان لهذه النزعة الفكرية في العلم

الحديث كان لها شطط من الوجهة الثانية يضاهي النجاح الذي لاقته. والوجهة الثانية هذه التي نعنيها هي وجهة العقائد الاساسية حيث تصدّت العقائد العلمية لعقائد المعرفة العليـــا الدينية في حقيقة الوجود والحياة ونفس الانسان.

كان من العوامل الاساسية في تقدم العلم الحديث اختراع الاجهزة الحساسة الدقيقة التي تنبىء بما لا تتأثر به الحواس العزلاء. ومع ان دقـة وحساسية الاجهزة قد وصلت الى درجة متناهية فلا يزال في الوجود هويات لم تُستَظهَر بواسطتها. والعلماء قاطبة مقتنعون بان بعض الهويات ادقّ من ان يستظهرها ايّ جهاز. ولديهم دلائل كافية تقنعهم بوجودها اقناعاً لا شك فيه. ومع ذلك فلم يقنطوا من التوصل الى التعرّف اليهـا معرفة يقينية بالاستنتاج المدعوم بالاختبار العملي على النحو الذي يلي شرحه، وهو الاسلوب المتبع في تأليف النظريات العلمية:

يفترضون افتراضاً عن ماهية الهويات الخفية. ثم يتدرجون بالاستنتاج الى النتيجة الظاهرة التي يؤدّي اليها تسليط العوامل الطبيعية عـــلى تلك الهويات الخفية في باطن المادة. فاذا كانت النتيجة التي يوصل اليهـا بالاستنتاج متوافقة مع النتيجة المشاهدة عيانيّاً بالاختبار العملي ومتطابقة معها فيعتبرون التوافق والتطابق برهاناً على صحة الافتراض. وكاد العلماء يتخذون هذا النوع من

البرهان انه برهان قاطع على صحة المعرفة عن ماهية تلك الهويات الخفيّة . فكأنهم توصلوا بتلك الطريقة الى المعرفة القصوى عن حقيقة باطن المادة والطاقة والكون المادّيّ . ولكنه تبيّن لهم بعد ذلك انه ممكن ان تؤدّي عدة افتراضات مختلفة الى نتيجة واحدة. واهمّ من ذلك هو تواصل ظهور معلومات جديدة تقتضي تعديل او تغيير الافتراض من اساسه بعد ان كاد يستقر ويرسخ في العلم . وتبعاً لذلك لن يصل العلماء الى افتراض يتوافق مع كل المعلومات فيستقر ويرسخ . ولا يزال لتفسير ماهية الضوء نظريتان ، نظرية التموج ونظرية رشّ القذائف ، كل واحدة تفسّر قسماً من معلومات الظواهر الضوئية . ومثل نظريات الضوء نظرية الغازات ونظرية الحرارة ونظرية الكهربائية ونظرية الذرة . والعجيب ان كثيرين من العلماء لا يزالون ميّالين ان يوهموا انفسهم بان تلك الطريقة في الافتراض والاستنتاج والامتحان بالاختبار العملي تؤدّي الى الحقيقة القصوى الباطنة ، فلا عجب اذا كان المتابعون موهومين بان هذا النوع من البحث العلمي قد اوصل الى نهاية المعرفة عن حقيقة المادة. ولا يزال كثير من النظريات شائعاً عند عامة المتابعين و مُعتَبَراً انه حقيقة مثبتة بالبرهان القاطع .

والاستنتاج المشروح في ما سبق من البحث حلقته الاولى

هويّة مفترضة لا وصول الى اختبارها بالمشاهدة العيانية وحلقته النهائية ظاهرة يمكن تحقيقهـــا بالمشاهدة العيانية اي بالاختبار العملي . والمعرفة العلمية عن باطن المادة وحقيقة النفس والحياة ومنشإ الكون هي من هذا النوع من الاستنتاج . وهنالك نوع آخر من الاستنتاج حلقته الاولى ظاهرة مثبتة بالاختبـار العملي لكن نتيجته النهائية لا وصول الى اختبارها وامتحانها بالمشاهدة العيانية والتثبت من صحتها بالاختبار العملي. والمعرفة العلمية عن منشإ الكون والنفس ومصيرهما مبنية على هذا النوع من الاستنتاج.

ان الاستنتاج العلمي يؤدّي الى معرفة صحيحة يعتمد عليها حين تكون سلسلته بحلقتيها الاولية والنهائية واقعة ضمن طبقة واحدة من الكائنـــات او ضمن جوّ محدود في طبقة واحدة كالاستنتاج الممثل في الهندسة الاقليدية والميكانيك والبصريات الهندسية حيث كلتـا الحلقتين الاولى والأخيرة واقعتان ضمن طبقة المحسوس الممكن ان يشاهد عيانيّاً وان يختبر عمليّاً . ولكن حيث احدى الحلقتين واقعـة في طبقة او في جوّ غير الذي فيـه الحلقة المتطرفة الثانية فالاستنتاج يشطّ عن صراط المعرفة الصحيحة باجتياز السلسلة الحدّ الفاصل الواصل بين الطبقتين. ان العقل والحياة في طبقة ، وظاهر المادة والطاقة المحسوس هو في طبقة ثانية ، والتموجات الاثيرية وباطن المادة والطاقة في طبقة

متوسطة بين طبقة العقل وطبقة ظاهر المادة المحسوس. فلا يمكن التوصّل بالاستنتاج المنطقي العلمي من المشاهدات المحسوسة الى جوهر الحياة والعقل غير المحسوس .

ان شطط الاستنتاج المنطقي بالانتقال من طبقة الى طبقة في الوجود تابع لتغيّر الاوليات المنطقية في علم كل طبقة عمّا هي عليه في غيرها. «الجزء اصغر من الكل، والكل اعظم من الجزء» هي اولية معروفة في حساب المقادير المحدودة لكنها تبطل في حساب المقادير اللانهائية حيث « الكل يساوي الجزء ، والجزء يساوي الكل . » وهي الاولية المؤسس عليها حساب المقادير اللانهائية . ثم ان علم التحليل الرياضي المطبّق على الهويات والمقادير الطبيعية الفيزيائية يقول بحالات حيث مجموع الاجزاء قد يكون اعظم من الكل او اقل منه . ويعترف علم الاحياء بان الجسم الحيّ هو شيء اعظم من مجموع الاعضاء والذرات التي يتألف منها .

والهندسة غير الاقليدية التي نشأت في القرن التاسع عشر على تعدد انواعها يختلف بعضها عن بعض وكل منها عن الهندسة الاقليدية المألوفة باختلاف الاوليات المقبولة من دون برهان في كل من تلك الهندسات . والاختلاف بين الفيزياء الحديثة التي نشأت في اواخر القرن التاسع عشر وترعرعت في هذا الجيل

المعاصر والفيزياء الكلاسيكية التي نشأت بابحاث غاليليو ونيوتن وبلغت اوجها في القرن التاسع عشر هو اختلاف في الافتراضات الاساسية اي الاوليات المقبولة من دون برهان . وكان القدماء يقولون عنها انها اوليات «يوجبها العقل .»

ان صحة الاستنتاج المنطقي تابعة لصحة الاوليات المبني عليها الاستنتاج . فالاستنتاج الذي نصل اليه بالمنطق تبعاً للاخذ باولية معينة يخالف الاستنتاج المبني على اولية مخالفة . فاذا كانت الاوليات المختصة بطبقة من طبقات الوجود والكائنات تختلف عن اوليات غيرها من الطبقات فلا تصحّ مواصلة الاستنتاج من طبقة الى طبقة كما من طبقة الكائنات الاثيرية الى طبقة الكائنات الحسية او بالعكس على النحو المتبع في النظريات العلمية الطبيعية .

كان زمان اعتبر فيه العلماء صحة الاوليات المقبولة من دون برهان صحة عامة شاملة من دون حد في الظرف والحال والمكان والزمان . وبناء على ذلك قد جعلوا للاستنتاج المدعوم بالاختبار العملي في الابحاث العلمية الكلاسيكية مقاماً من الصحة واليقين ما فوقه مقام . ولذلك صار لبعض النظريات العلمية التي تبلورت في عصر العلم الكلاسيكي مقام العقائد الراسخة . ولا تزال قوّة الاندفاع في هذا التيار الفكري قوة جارفة تسيطر على تفكير معظم العلماء حتى الذين قد أُلِفوا وجهة النظر العلمية الحديثة

الى الاوليات المقبولة في منطق العلم من دون برهان وهي انها ليست مما يوجبه العقل – على رأي الاقدمين – ولا هي عامّة شاملة من دون حد – على رأي الكلاسيكيين – بل هي اوليات محدودة خاصة. اي ان للعلم المختص بطبقة من الكائنات اوليات خاصة به لا تصحّ على الكائنات في غيرها من الطبقات على نحو الامثلة التي قدمناها . والاصحّ من هذا ان الاوليات المختصة بطبقة من الكائنات تشمل الطبقات التي دونها لكنها لا تصحّ بتطبيقها على الطبقة التي فوقها. فهي اعمّ من اوليات الطبقة التي دونها لكنها حالة خاصة لاوليات الطبقة التي فوقها. وبوجهة النظر هذه تتبيّن الكيفية التي تتمم بها المعرفة العليا المعرفة الدنيا، ويتبيّن ان الاختلاف الظاهر ليس مُناقضة بل هو تتميم .

ان هذه الوجهة من البحث في منطق العلم وفلسفته قد ظهرت في ابحاث العلوم الطبيعية الرياضية والفيزياء خاصة وذلك في العقود المتأخرة، ولا تزال في مرحلتها البدائية شبيهة بمرحلة الطفل المقمّط في السرير. ولا يزال الكثيرون من العلماء الفيزيائيين الرياضيين غير متعرفين اليها الى درجة الالفة الكافية. وابعد منهم عنها هم العلماء البيولوجيون والسيكولوجيون وعلماء التربية الذين يتابعون اولئك في تطبيق الطريقة العلمية الحديثة . فلا عجب اذا كانوا لا يزالون ينشرون ضباباً كثيفاً من النظريات

العلمية يحجب محجة العلم وهدفه الصحيح عن طلبة العلم وذلك الى درجة اسوأ مما يؤثر بها علماء الجماد على تفكير ابناء هذا الجيل .

ان وجهة النظر التي ابديناها في مراتب الكائنات وطبقاتها والاوليات المختصة بعلم كل طبقة لا تستقيم في تفكير المتأثرين بنظريات العلم الحديث حتى يستقيم في نظرهم امر آخر قد قلبته عدسة الابحاث العلمية النظرية رأساً على عقب . فالعقيدة العلمية الشائعة هي ان المادة اساس الكائنات ومنها قد نشأت الحياة ثم العقل . وقوانين المادة بحسب هذه العقيدة تعمّ وتشمل قوانين الحياة والعقل . واذا كانت قوانين المادة عامة تشمل الحياة والعقل فالمادة اعلى مرتبة منهما . على ان أتباع هذه العقيدة يناقضون انفسهم بنظرية ثانية هي نظرية النشوء والارتقاء من المادة الى الحياة والعقل . والبحث في انّ قوانين العقل والحياة اعمّ واكثر شمولاً واعلى مرتبة من قوانين المادة يتسع لمؤلّف خاص . لكن الاشارة اليه في هذا المقام ضرورية للوجهة المحدودة بموضوع هذا الفصل .

واذا انتقلنا من طبقة الحقائق التي ندركها عن طريق الاختبار الحسي المكمّل بالتفكير المجرّد الى الحقائق التي ندركها بالخيال نرى هناك ايضاً تغيّراً في الاوليات المؤسسة عليها المعرفة في كل طبقة . ان الخيال المتفتح بالمحبة يؤدّي بنا الى القول بان «انت وانا واحد .» واذا ترجمنا هذا القول الى صيغة التعبير

الرياضي : ١ + ١ = ١ رأيناه مخالفاً للاولية الحسابية المعروفة : ١ + ١ = ٢ . ومهما اجتهدنا لازالة الخلاف بالتفسير المجازي نرانا اقرب فاقرب الى الاعتراف بصحة القول : ١ + ١ = ١ حقيقة لا مجازاً. فالاولية الحسابية : ١ + ١ = ٢ نطبقها في المعاملات التجارية والحقوقية والابحاث العلمية. اما الاولية الانسانية : ١ + ١ = ١ فمجال تطبيقها هو في طبقة الوجود التي ننتقل اليها حين نغلق مصانعنا ومتاجرنا ومحاكمنا ومعاهدنا العلمية ونجتمع لاقتسام خيرات الارض بسلام واغتباط ولافتهام معنى الحياة وغايتنا من الوجود. وهي الاولية المؤدية الى ادراك وحدة النفوس الفردية مع جميع الكائنات في الاله الواحد. واذا حاولنا التعبير عن هذه الحقيقة القصوى بالصيغة الرياضية ولو تعبيراً جزئياً : —

١ + ١ + ١ + ... = ١

رأينا انها لا تنفصل عن الاولية الانسانية التي تعبيرها الرياضي هو : ١ + ١ = ١

ومثلما يشطّ الاستنتاج عن المعرفة الصحيحة بالانتقال من طبقة الى طبقة او من جوّ الى جوّ كذلك يؤدّي تعميم القوانين العامة الى خارج الطبقة والجو الذي استنبطت فيه الى معرفة غير صحيحة ، اي الى وهم. وعدم تميز الانتقال من جوّ الى جوّ يؤدّي الى انكار صحة الحوادث التي تكون في جوّ غير الجوّ

الذي الفناه في الحالة النفسية السوية. مثال بسيط على ذلك هو انقداح شرارة نار من ضرب الحديد بالصوّان. فهذا هو قانون عام في المكان والزمان اي انه لا يتغير من بلد الى بلد ولا من يوم الى يوم . هكذا كان في العصر الحجري وسيظل كذلك الى عصور الانسانية المقبلة. ولكنه محدود ضمن جوّ الهواء ولا يصحّ ضمن جوّ الماء . تصوّر طائفة من البشرية عائشة كالاسماك في قعر البحر وقد بلغ افرادها درجة الذكاء والمعرفة العلمية التي للبشرية على وجه الارض . اذا نزل اليهم غوّاص من جوّنا واخبرهم بانقداح الشرارة من الحديد والصوان ضحك منه السواد الاعظم منهم على نحو ما يضحك الكثيرون من الناس من اخبار الافراد الذين توصلوا الى معرفة العالم الباطن . ومثل هذا القانون قانون تبدد الطاقة وانحطاطها المعروف بقانون الثرموديناميك الثاني الذي من تعميمه الى خارج حدوده يستنتج العلماء ان الكون صائر الى الموت المطلق المحتّم . ولكن اذا تجلّى لنا ان دورة الكون لا تكتمل في طبقة الوجود والكائنات التي عليها حواسنا ولكنها تكتمل وتعود الى نفسها باجتياز طبقة غير طبقة الحواس فيسهل علينا ادراك هوّة الشطط في الاستنتاج العلمي عن مصير الكون . اذا كانت النزعة في طبقة الى التبدد والانحطاط ففي الثانية تكون نحو انتظام ما تبدّد وتجدّد ما هرم.

ومعروف ايضاً في علم الفيزياء ان الظاهرات الضوئية في جوّ اعتيادي تتغير بمرور اشعة الضوء في جوّ مغناطيسي او جو كهربائي او جو جاذبي قوي. وقد اشرنا في غير هذا الفصل الى اجراء التجارب على الحيوان لاستنباط قوانين تعلمه ثم تعميم تلك القوانين المزعومة على الانسان وتطبيقها في تعليمه وتربيته. ان حياة الانسان وتصرفه هما في جوّ العقل الواعي الذي يجعل لمنهج حياته نظاماً أعلى مرتبة واوسع من نظام حياة الحيوان الخالية من تأثير الجوّ العقلي الاّ على قدر ما يتأثر الحيوان بجو الانسان المتسلط عليه. فلا تنطبق تلك القوانين المزعومة على الانسان حتى ولو كانت صحيحة من جهة انطباقها على الحيوان.

ان بعض الابحاث العلمية يؤدّي الى قوانين عامة يمكن الاعتماد عليها الى درجة فائقة من الضبط ضمن حدودها. وبعض الابحاث لا يؤدّي الى غير الافتراض والاستنتاج النظري. ويفوت الكثيرين من الباحثين انفسهم ان يميّزوا الفرق في درجة الاعتماد على صحة النتائج في كلا النوعين من البحث. والظاهر انهم يعتبرون نتائج الاختبار العملي كأنها من درجة واحدة في الصحة واليقين أكانت مما يؤدّي الى قانون عام ام الى استنتاج نظري. وهذه الوجهة من اساسيات العلم الحديث تلزم معرفتها لمن اقتبسوا اسلوب الاختبار العلمي العملي ليطبقوه على علوم الاحياء

والنفس ، خصوصاً للاطباء والسيكولوجيين الذين يقولون باشياء كثيرة يزعمون ان صحتها مثبتة بالاختبار العلمي العملي وهم لا يميزون هل النتيجة التي وصلوا اليها ويقولون بها هي استنتاج نظريّ ام قانون عام .

هذه رؤوس اقلام من موضوع يقتضي مؤلّفاً خاصّاً يوفّيه حقه . وقد اوردنا هذا المختصر لننبّه القارىء الى وجهة الشطط في المعرفة العلمية التي كان لها اثر كبير في التربية العامة وهو ازاغة التفكير عن نظام الحياة وعن غايتنا فيها التي يجب ان تطاوع غاية الحياة الشاملة فينا. فاذا سمعت أتباع العلم الحديث يتحدثون عما وصلت اليه المعرفة العلمية من اسرار النفس وناموس الحياة كما في العقائد العلمية عن تلاشي واضمحلال سراب النفس بتبدّد الذرات التي تآلفت صدفة في اجسادنا ، او عن التنازع لاجل البقاء ناموساً للحياة ، او عن نظرية مالتوس في تقصير انتاج الارض عن حاجة النسل المتزايد، او ان السمكة الكبيرة تأكل الصغيرة، وان الحق للقوة، او ان الحياة هي مصادفات لا قصد ولا غاية من ورائها ، او ان الشهوة هي من طبيعة الانسان والتمتع بها ضروري للحياة كالغذاء للجسد . . . الى آخر ما هنالك من العقائد الشائعة الرائجة في موكب العلم الحديث ، فتأمل ما قدمناه لك من الخواطر عن أساسيات المعرفة العلمية واحكم لنفسك !

إرهاف الحواس وتهذيبها

تتفتّح المعرفة في الانسان بالاختبار . ومفتاح معرفة الكون هو الاختبار الحسّي في تلمّس الاشياء وتذوّقها وشمّها وفي تبصّر الابعاد والاشكال والالوان وفي سماع الاصوات . والاختبارات النفسية التي تتسامى عن المادة يبدأ ادراكها عن طريق الحس وتترسّخ في النفس بواسطة الاختبار الحسي الداخلي الذي يقترن معها في الحالات السوّية . فالمحبة والبغض لا يعرفهما السواد الاعظم من الناس سوى في تسارع نبض القلب وفوران الدم وامتقاع الوجه وتفشي قشعريرة في باطن الظهر لا تميّز أَموجة حرارة هي أم موجة برودة . والخوف والجزع تصطكّ معهما المفاصل ويصفرّ الوجه ويتراجع الدم ويخفق القلب كأنه يحاول ردّ الدم الى غلاف الجسد . والحسد وهواجس الليل تنخر في العظام . ومع ان الاختبارات النفسية تتخذ الحس الجسديّ واسطة لترسّخها في النفس لكنها لا تسمو الى مرتبتها الانسانية حتى يتعلّم الفرد ان يملك نفسه وعواطفه . ومعنى ذلك ان يتسلط العقل بالارادة على الجسد فيوقف نشاطه

الخاص المؤدّي الى فوران الدم فطغيان العواطف والشهوات ، ويتمكن من ادراك الحالات النفسية في جوّ فكريّ صافٍ مجرّد عن عواصف اللحم والدم. فالعقل في هذه المرتبة كاللاسلكي قد استغنى عن الاتصال المادي المحسوس في تبادل الرسائل وهو لا يذيع سوى المحبة .

اما المعرفة العلمية فلا تستغني لا في البداية ولا في النهاية عمّا يدركه العقل بواسطة الحواس . وما لا تدركه الحواس مباشرة تتصل به بواسطة مادة تتأثر به ، كالقوى المغناطيسية مثلًا ، فالحواس لا تتأثر بها ولكن الحديد يتأثر بها . فنتخذ ما ندركه من تأثر الحديد بها اساساً للتكهّن عن ماهية القوى المغناطيسية وقوانينها . والمعرفة العلمية ليست مجرّد الاختبار الحسي ولكنها قد ارتقت فوق الاختبار الحسي البدائي بنسبة ارتقائه في الانسان عمّا هو في الحيوان .

الانطباع الحسيّ الصرف هو الرسالة الواصلة الى العقل بواسطة الجهاز العصبي من التموّجات الواقعة على جهاز الحس ، وهو غير معروف عند الانسان الذي لا يزال ضمن مجال الحالة النفسية السويّة . والادراك الحسي او الاختبار الحسيّ الذي هو الصورة المرتسمة في الوعي العقلي مؤلف من الرسالة الواصلة الى العقل مع ردّ فعل العقل في تمييزها واضافة شيء اليها او حذف شيء

منها ، وهو مماثل لادراك معنى كلمة بذاتها مؤتلفاً مع تمييز محلها من الاعراب في الجملة. ان سلسلة التأثيرات المتوسطة الحادثة بين وقوع تموّجات على جهاز الحس وارتسام صورة في الوعي العقلي هي من عمل العقل الباطن. وما يعلمه العلماء عنها يكاد يكون شيئاً لا يذكر. ومع ان علماء النفس يحاولون فهم ذلك لكنهم لن يصلوا اليه بالاساليب المتبعة في علم النفس الحديث. امّا ما يهمنا من هذا كله فهو ان الاصطلاح المتفق عليه في اصول المعرفة العلمية هو قبول الصورة الذهنية المرتسمة في الوعي العقلي في الحالة النفسية السوية اساساً للمعرفة العلمية بناء على اعتبارها صورة صحيحة للكون الخارج عن العقل المستقل عنه بقطع النظر عن كيفية ارتسامها وتحقيق انطباقها على الاصل. فالعقل بحسب هذا الاصطلاح هو منفصل عن الكون يراقبه من نوافذ الحواس.

اذا كانت المعرفة تفتّح ما هو موجود كامن في النفس في حالة الهجوع فالادراك الحسي هو المنبّه اللازم لايقاظها وتفتّحها. وان كانت المعرفة استقاءً من خارج النفس فالحواس هي بابها وسبيلها. كلا المذهبين وان اختلفا في وجهة النظر الى المعرفة يتفقان في اعتبار الادراك الحسي اساساً للمعرفة العلمية. انّ ارهاف الحواس وتوسيع مجالها يوسّعان معرفة الانسان بالكون لا من جهة زيادة المواد الخام للمعرفة فحسب ولكن ارهاف الحواس

يشحذ القوى العقلية التي تؤلف العلم من الاختبارات الحسية . وفقدان الحواس يثقل نشاط القوى العقلية الاّ في ظروف وشروط خاصة وهذه نادرة جدّاً . معلوم عن بعض الذين يفقدون في صغرهم حاسة واحدة كالسمع او البصر انّ ما تبقّى لهم من الحواس يرهَف الى درجة فوق ما كان عليه ليعوّض على قدر الامكان عمّا فقد . ولكن معرفتهم العلمية تظلّ دون الدرجة التي يمكنهم الوصول اليها بالحواس السوية الكاملة . امّا من تفتحت فيه القوى الباطنة وكان له ميل الى الزهد والتأمل فقد يكون فقدان حاسة البصر او السمع عوناً له على التفكير المجرّد والتأمل الباطن. لكن القانون العام الذي يشمل السواد الاعظم من الناس هو التأثير المتبادل بين الحواس والقوى العقلية كما بين صحة العقل وصحة الجسد. الادراك الحسي هو منبّه القوى العقلية ومن دونه تميل الى الهجوع ما لم يكن لها منبّه باطن . ولا يتفتح المنبّه الباطن حتى يُغني عن المنبه الخارج الاّ بمقاربة استنفاد ما في جعبة الاختبار الحسي من مبادىء المعرفة.

ان ادوات القياس العلمية الحديثة هي اوسع مجالاً وادقّ حسّاً من حواس الانسان . ومهما يكن نوع المقدار الذي تنبىء به وتقيسه وسواء أكان تابعاً لحاسة السمع ام لحاسة البصر ام لغير ذلك فمدلولها هو قراءة وضع مؤشّر يتحرك على مقياس .

ولا يلزم للقراءة اكثر من عين واحدة عمياء اللون ترى الكون مسطّحاً لا عمق له . وهـذا قد جعل بعض العلماء يقولون بان اجهزة وادوات القياس العلمية قد حلّت محلّ الحواس واغنت عنها كلهـا سوى العين الواحدة . لكن القول خطأ لان مدلول ادوات القياس لا معنى له من دون اسناده الى الاختبار الحسي العام المألوف وتفسيره بـه . ومن يولد اعور اصمّ متمسح حاسة اللمس والذوق والشم فلا يفقه معنى لمدلول ادوات القياس ولو قضى عمره في التدرب عليها . وفوق ذلك فالمعرفـة العلمية هي وجهة واحدة من المعرفة المبنية على الاختبار الحسي وهي وجهة المقادير القابلة للقياس بمقاييس الطول والوزن والزمن . ولكن المعرفة المبنية على الاختبار الحسي تشمل اكثر مما هو قابل للقياس بتلك المقاييس . وهي من دون الحواس المرهفة الكاملة تظل مغلقة عن الوعي العقلي . المعرفة التي تتفتح فينـا بادراك جمال الطبيعة في الوانها وانوارها وظلالها والحانها وبادراك نشوة الوصال مع الحياة الشاملة التي تتخلل الطبيعة والكون هي معرفة اوسع من المعرفة العلمية . ولا معنى لهذه في حياة الانسان ان لم تؤدِّ الى معرفة جمال الحياة ووصالها. قد يظن الكثيرون ان المعرفة العلمية المجردة معظمهـا عظام يابسة في مسالك وعرة . وهذا الانطباع عند الكثيرين عائد الى الضعف والنقص في اساليب

التعليم والتوجيه ولكنها بالقائها وتقديمها على الاصول التربيوية الصحيحة تؤدي الى ادراك جمال الانتظام والانسجام والتوافق في الكون معبّراً عنها بالرموز الرياضية ، وهي من هذه الوجهة تتلاقى وتتكامل مع المعرفة الفنّية .

ان معرفة الحالات والعواطف النفسية والمعرفة الفنية قد تصل كلها الى درجة الاستغناء عن الادراك الحسيّ وذلك من بعد الوصول الى درجة معينة من تفتح القوى العقلية والنفسية . ولكن مدخلها ومراحلها الاولى هي عن طريق الادراك الحسي. فارهاف الحواس وتهذيبها بتداريب خاصة هو من اساسيات التربية والتعليم . ان ممارسة المراقبة العلمية ذاتها ترهف الحواس الى درجة ، وكذلك ممارسة مبادىء الفنون وبالأخص الرسم عن الطبيعة والعزف الموسيقي واكثر من العزف التمرن على الاصغاء وتحليل الالحان بالسمع وتمييز الانغام المتمازجة والآلات المشتركة في العزف معاً . واهمّ من ذلك كله مراقبة الطبيعة في الحقول والبساتين ، في السهول والجبال والاودية والانهار والسواقي والصخور والاتربة وطبقات الارض والينابيع ، في الاشجار والاعشاب والأزهار والحيوانات البرية ، وفي الاستماع الى اصوات الطبيعة ، ثم تعلّم مبادىء الصناعة والزراعة التي تلزم لكل فرد في ادارة منزله وتدبير حديقته . انّ في ذلك كله

علماً وتمريناً على ارهاف الحواس معاً. من يراقب ويتعلّم كل ذلك تصبح حواسه مرهفة . ومن يرهف حواسه يتعلم . ولا يتعلم الفرد شيئاً من مبادىء المعرفة الطبيعية والعلمية والفنية والصناعية الاّ بالمراقبة الفعلية والعمل ، ولا سبيل لاتقان العمل وتدقيق الملاحظة والمراقبة من دون ارهاف الحواس . على المدرس والمربّي ان ينبّه الطالب الى اصول الملاحظة والانتباه والى التيقظ وقصد الملاحظة لكل ما يمرّ به في رواحه ومجيئه، وان يمتحن طلابه في كل ذلك وان يفرض عليهم تداريب خاصة لارهاف الحواس على نحو التداريب الرياضية البدنية لترويض اعضاء الجسد. وهذا امر في غاية الاهمية. لكن معظم المدرسين غافلون عنه او مقصرون في تنفيذه . وكثيرون من الطلاب عمي عمّا يمكنهم ان يروه وصمّ عما يمكنهم ان يسمعوه ، فيفوتهم بذلك كثير من المعرفة العلمية النافعة ومن ادراك الجمال في الطبيعة والانتشاء به .

ان كثيراً من التدريس العلمي في مدارس التعليم العام لايؤدّي بالطالب الى تعلّم الاشياء بمراقبتها واختبارها حسب ما هو منتظر من التعليم العلمي لأنه تدريس نصوص كلامية عن الاشياء مدعوماً بالرسوم والخرائط وبعض النماذج التي لا يستفيد الطالب فائدة تذكر من رؤيتها وهي معزولة عن محيطها . فليس

في هـذا النمط من التدريس ارهـاف للحواس ولا المعرفـة المقصودة بواسطـة الحواس المرهفة . حتى الاختبار العملي الذي يعمله الطالب بنفسه في المختبر قد يمكن ان يكون اختباراً عمليّاً في الظاهر لكنه تقليد عـن غير فهم في الواقع . ويعطى كثير من الدروس العملية التي يستوجب اجراؤها حواسٌ مرهفة فوق الدرجـة التي لمتوسط الطـلاب . ان دراسة الصوت في الفيزياء هي تحليـل ميكانيكي رياضي للتموجـات الصوتية ، وهي للطالب كالجهاد والصراع وعدّته معرفة ركيكة في الرياضيات والميكانيك وحاسة سمع ثقيلة غليظة لا تميّز بين نوطة ونوطـة بينهما درجة كاملة في السلّم الموسيقي. ومثل الصوت دراسة الضوء والبصريات. فالطالب يتصارع معهـا محاولاً ادراك الصلـة الباطنـة الخافيـة بالتفكير المجرد بين ظاهرتين محسوستين مرتبطتين ارتباط السبب والنتيجة ، وبصره غير مرهف الى الدرجة الكافية لادراك ما هو ظاهر ، وهو فوق ذلك ضعيف الملاحظة والانتبـاه اعمى عمّـا يمكنه ان يراه بالعين المجردة .

التدريب العلمي بالاختبار العملي والتدريب الفني يتكاملان في ارهاف الحواس الى الدرجة اللازمة في العلم وفي الفن معاً ، كما ان العلم والفن يتكاملان في تفتح المعرفة الصحيحة في النفس. ومراقبة الطبيعة بروح المحبة لكل مـا فيها تمثّل اندماج العـلم

والفن في المعرفة العليا . قد يعمى العالم عن الجمال الذي يدرك بالمعرفة العلمية اذا كان شعوره الفني غير متفتح . والفنّان التائه عن طريق المعرفة يُمسي فنّه ترياقاً مسكراً يثير الشهوات ويضعف القوى النفسية . لكن ادراك الجمال إنْ بالعلم او بالفن يرفع مستوى النفس الى درجة جديدة في الوعي النفسي والمعرفة الروحية العليا . وتظل النفس على تلك الدرجة في حالتها الواعية السوية . اي ان تفتّح المعرفة بادراك الجمال لا يزول كما تزول نشوة السكر .

الاختبار الحسي والعمل هما واحد ، لا العمل في المختبر العلمي فقط ولكن كل ما نعمله في الحياة من اعمال الجوارح واعمال القلوب ، وهو المدخل والمرحلة الاولى لتفتح المعرفة . والتفكير المجرد يبدأ بعد ترعرع القدرة على العمل ويترافق معها على ازدياد في النشاط خصوصاً بعد ان تبلغ مرحلة العمل اوجها . والتأمل الباطن هو درجة ثانية في التفكير المجرد يترافق معه على نحو ما يترافق التفكير المجرد مع العمل . ان السواد الاعظم من البشرية لا يزال في مرحلة الاختبار الحسي والعمل . والذين بلغوا وتقدموا في التفكير المجرد هم اقلية ضئيلة العدد . والذين في مرحلة التأمل الباطن هم افراد قلائل لم يخلُ جيل من البشرية منهم ، وهم المعلمون الروحانيون والمتصوفون .

ان المشكل الذي يشغل البادئين بالتفكير المجرد هو تحوّل

الاختبار الحسي الى شهوات دنيوية يلازمها اختبار اللذة والالم، فمنهم من ادرك شرّ الشهوات وجهل طريقة معالجتها فلا يرى الى ذلك سبيلاً غير قهر الجسد وتخدير عمل اعضائه بحيث يمتنع على الشهوة الاستظهار على مستوى الحس الجسدي. ومنهم من يظن ان ضبط النفس وكبح الشهوات يجعل الحياة الفردية في شبه مناحة صامتة على النقيض الآخر من نشوة الحياة التي هي حق وطلبها مبرّر.

ان الجسد هو الهيكل المقدس للروح التي هي نسمة الحياة فيه المنبثقة من الله الحيّ. والحواس الجسدية هي مفاتيح المعرفة المؤدية الى مصدر الحياة ومرجعها. فمن قهر جسده وخدّر حواسه باماتة الاعضاء الجسدية فقد اضعف قواه العقلية وافسد على نفسه طريق المعرفة الى الله تعالى. ان بعض وجوه الرياضة النفسية، كالصوم، ليس قهراً للجسد. اذا كانت ممارسته على الاصول الصحيحة فهو ينقي الجسد من ادران الرواسب التي تثقل عمل اعضائه وجهازه العصبي وتشوش التفكير. ومن اراد ان يبلغ درجة معينة في الصفاء الفكري وتفتّح القوى النفسية عليه ان يمارس الصوم. وفي ممارسته الصحيحة نشوة تتسامى على لذة الاكل. ومن ازاغ حواسه عن المعرفة الى التلذذ بالشهوات فقد حوّل بذلك محلّ العبادة الى مرقص وخمارة بدايتها لذة موهومة

ونهايتها عربدة وتشويش والم . الميول الغريزية التي في الانسان هي مرحلة من مراحل الاختبار الذي تتفتح به المعرفة . وسيأتي يوم تنطوي فيه تلك الميول اذ يكون الانسان قد حصل على المعرفة اللازمة باختبارها . وسيستغرق وصول الانسانية الى تلك الدرجة اجيالاً عديدة طويلة . لكن في الانسانية اليوم مثلما كان في الماضي افراداً قد وصلوا الى درجة الاستعداد لتحويل مجرى حياتهم عن تلك الميول بالتوجيه الفكري والارادة فتتحوّل الافرازات الجسدية في دمهم الى طاقة فكرية ترهف الجهاز العصبي والقوى العقلية لا الى طاقة حيوانية تثير الشهوات وتعكر جو التفكير. ان اماتة الاعضاء الجسدية تمنع الشهوة من الاستظهار لكن نارها تظل تتأجج في النفس فيؤدّي الامتناع بالجسد من دون الامتناع بالفكر الذي يظل جامحاً حائماً على الشهوة الى تناقض في حياة الفرد يظهر في النهاية في شكل الامراض العصبية .

اما الذين لم يصلوا الى درجة الاستعداد لطيّ الميول الغريزية فيظل عليهم واجب التوجيه الفكري بالارادة لابقاء الغريزة على سُنّتها السويّة الصالحة ومنع ازاغتها الى شهوة فاسدة. ان اداء وظائف الحياة الجسدية على سُنّتها السوية تقترن معه نشوة خالصة صافية. والحياة من دون ازاغة عن غايتها ومحجتها هي نشوه دائمة

تسامى بتفتح المعرفة الى اغتباط واطمئنان وسلام نفسي يفوق التعبير بواسطة الحواس . لكن تميز النشوة المقترنة مع وظيفة الحياة وجعلها دون المعرفة غاية للحياة قـــد حوّل عمل الحياة الغريزي الصالح الى شهوة تميّز فيها الشرّ وحوّل النشوة الخالصة الى لذة وقتيّة يعقبها الم مقيم. هذه هي الخطية الاولى التي ننسبها الى أبينا آدم ولا يخلصنا من نتيجتها طرح المسؤولية عن أنفسنا واسنادهـا اليه . فما آدم سفر التكوين سوى النفس الفرديـة الجاهلة فينا التي قد غرها وأوهمها سراب الشهوات الذي خلقته هي لنفسها بتحويلها وظيفة الحواس عن المعرفة الى اللذة . ولا يخلصهـا من الخطية سوى سلوك طريق المعرفة .

شحذ القوى العقلية

القوى العقلية هي للمعرفة كالادوات للصناعة . وليس مصنع من دون حجر الشحذ ولا صناعة من دون اختصاصيين للابتكار والاختراع يفتشون عن مواد وادوات واساليب جديدة ترتقي بها الصناعة من مرتبة الى مرتبة . ولكن مدارس التعليم والتربية هي كمصنع ليس فيه حجر الشحذ ولا مختبر الابتكار والاختراع . انها لحالة تثير الاشفاق على بعض الطلاب الذين تتراكم عليهم الواجبات بازدياد مواضيع المنهج واتساع مادة كل موضوع من دون ان يتدرّبوا تدريباً خاصاً يرفع مستوى قواهم العقلية الى الدرجة التي تتناسب مع المعرفة المطلوبة منهم . هوذا طلبة الطب مثلاً . يطلب منهم ان يحفظوا ويتذكروا آلاف الاسماء والاصطلاحات للهويات وللعلاقات التي تترابط بها تلك الهويّات المميزة في علوم التشريح والفسلجة والكيميا والاقرباذين . . . الخ . وليس في منهج الدراسة كله تدريب يقوّي الذاكرة سوى القليل من المحفوظات في الصفوف الابتدائية . ومثل الذاكرة بقية القوى العقلية . فهي تترك على فطرتها في حين ان الاختبارات

التي تفرضها مناهج الدراسة على الطالب تخرج به عن الحالة الفطرية الى مدى بعيد . وقد تكاثرت وتكدّست الدروس الموهومة انها ضرورية في المنهج المعيّن للطالب الى سنّ محدودة بحيث انزلت بعض الدروس من الصفوف العالية الى الصفوف الابتدائية فتُعطى لمن لم يصلوا الى درجة البلوغ الكافية لادراكها . الهندسة الاقليدية والجبر الابتدائي مثلاً يصعب ادراكهما على معظم البالغين من طلاب التعليم العام ومع ذلك فقد فرض المنهج الابتداء بهما على الاولاد دون سن البلوغ . فلا عجب اذا انحطّ تعليمهما الى درجة الركاكة المخزية . ودرجة النجاح فيهما كما في غيرهما من الدروس للسواد الاعظم من طلبة التعليم العام ليست سوى تمويه اسميّ يقبل به هذا الجيل من معلمين ومتعلمين . ان هذه القضية تثير قضايا عديدة غيرها . ولكننا قد اوردناها شاهداً على عدم التناسب بين المعرفة التي يفرضها المنهج وارتقاء القوى العقلية الى الدرجة اللازمة لادراكها .

ربما يستنتج مما قدّمناه انه يقارب المستحيل على معظم الطلاب ان يتابعوا الدراسة وهم على الحال التي وصفناها . ولكن قسماً منهم يتابع متابعة فوق ما قد يستنتج ، على انها متابعة متعب مقصّر عن القافلة في سيرها المعتدل السويّ . ان الشبه بين

القوى العقلية وادوات الصناعة هو ذو وجه واحد محدود . فالقوى العقلية كالقوى الجسدية تشحذ وتصلح وتجدّد ذاتها بذاتها في اداء وظيفتها على الوجه السويّ فتتقوّى بالاستعمال وتضعف بالاهمال . والدراسة على النمط الصحيح تشحذ وترفع القوى العقلية مثلما العمل الجسدي يقوّي الجسد ولكن الى حدّ محدود. وسوء الاستعمال يضعف ويفسد عملها . ونحن نرى ان توسّع العلوم في هذا العصر وضرورة استيعاب مقدار عظيم منها في زمن محدود يوجب شحذ القوى العقلية وترقيتها بتداريب خاصة فوق ما يحصل بانشحاذها وتفتحها بذاتها بالدراسة الاعتيادية على النمط الصحيح . ولكن الطالب الاعتياديّ لا يزال بعيداً عن اتّباع الطريقة الصحيحة في دراسته كبعده عن ان يطبق في حياته قوانين الصحة التي تعلّم نصّها الكلامي . وتأثير عاداته الشخصية اقرب الى افساد قواه العقلية والجسدية ممّا هو الى تركيزها وانمائها . وكثيرون من المدرسين لا يتميزون عن تلامذتهم من هذه الوجهة كما ان كثيرين من الاطباء لا يتميزون عن عامة الناس في تصرّفهم الشخصي من الوجهة الصحية . صحيح ان انتشار العلم والتربية الحديثين قد رفع مستوى التفكير في هذا العصر عما كان عليه في العصور السابقة ولكن درجة الارتقاء هي دون الدرجة التي يتوهمها ابناء هذا الجيل . ومع ان روح

هذا العصر هي روح الاختبار العملي والتطبيق فانتشارها هو في المختبرات العلمية والمعامل الصناعية اكثر مما هو في البيوت وفي حياة الافراد الذين لم يطبقوا علمهم على حياتهم في تصرفهم الشخصي ، او هم لم يوفقوا تصرفهم مع المبادىء العلمية الصحيحة التي تعلموا نصّها الكلامي . قد يكون الواحد عالماً ثقةً في مختبره وعلمه ، ويبقى في تصرفه الشخصي بين الناس كواحد من العامة ، فهو لم يتأثر باساليب المعرفة العلمية .

ان التدريب اللازم لشحذ القوى العقلية هو تدريب عمليّ لا تنفصل فيه الرياضة العقلية عن الرياضة البدنية والرياضة الروحية الاخلاقية . فكل وجه من هذه الوجوه الثلاثة المتتامّة المتكاملة هو متبادل التأثير مع الوجهين الباقيين . ومبادىء هذا التأثير المتبادل معروفة كتأثير التخمة والمرض والالم في اثقال التفكير ، وتأثير الانغماس الشهواني في اضعاف القوى الجسدية والعقلية معاً ، وتأثير العقاقير على الوعي العقلي ، وتأثير الحالات النفسية كالغضب والجزع والقلق في تشتت الفكر واضطراب عمل الاعضاء الجسدية معاً ، وتأثير الفكر المركّز الموجّه بالارادة في شفاء الامراض العضوية ، وتأثير الغذاء والراحة والتوجيه الفكري على الامراض العصبية . . . . الى آخر ما هنالك من الاختبارات المعروفة حتى عند عامة الناس . ولكن مناهج التعليم والتربية

تكاد تكون غير متأثرة بها تأثّراً فعليّاً .

ليست حياة الفكر والتأثيرات الفكرية منفصلة ومستقلة عن حياة الجسد والتأثيرات الجسدية في الحالة النفسية العامة ، كما يوهم الشرح والتحليل العلمي . لكل فكر نفكره ولكلّ شهوة نشتهيها اثر في حياة الجسد مثلما لكل اكلة نأكلها ولكل لذة جسدية نتمتع بها ولكل الم حسيّ نكابده اثر في تفكيرنا . فما التأثيرات الحسية في حياة الجسد والتأثيرات الفكرية في حياة الفكر سوى وجهتين متكاملتين لاختبار حياة واحدة لا تتجزّأ هي حياة الروح . وكل فكر نفكره وكل عمل نعمله يؤدي الى تأثير على سيرنا نحو غاية الحياة الواحدة . فهو امّا ان يعيق او يعجّل ادراك وحدة الروح الفردية مع الروح الكلية الشاملة . كل ما يعيق ذلك يسبب الالم للنفس الفردية ، وكل ما يساعد على الوصول الى الغاية يحرر النفس الفردية من عبوديتها للمادة والالم حتى في المرحلة من الحياة ما بين المهد واللحد . ان التفريق بين التأثيرات الحسية والتأثيرات الفكرية قد يظهر له وجه من الصحة الى حدّ . لكنه تجريد عقلي على نحو ما هو متبع في التحليل العلمي لاستجلاء وتفهّم العلاقات الخافية على المشاهدة البدائية . لكن الذين يبلغون درجة التحرّر النهائية من المادة يصبحون في كيان عقلي روحيّ مطلق .

ان الالعاب الرياضية الملصوقة على المنهج الدراسي لصقاً خارجياً ليست سوى جزء ناقص من الرياضة البدنية كما يجب ان تكون ، مجبولة جبلًا مع الرياضة العقلية. وفي ما يلي مثال بسيط على ذلك : التمارين الجمنستيكية التي غايتها ترويض العضلات وتليين المفاصل وتنبيه الاعضاء الداخلية وانعاشها هي رياضة بدنية. وتركيز الانتباه وتوجيهه وتوقيعه توقيعاً متواصلًا على شيء حسيّ او على صورة ذهنية او فكرة مجردة هو رياضة عقلية. يجب ان تقترن الرياضة العقلية مع الرياضة البدنية بتوقيع الانتباه توقيعاً مركزاً متواصلًا على الأعضاء التي يراد تمرينها وترويضها فتكون الرياضة ذات فائدة عامة. اما الرياضة البدنية مع تشتت الفكر فلا تفيد. واين المدارس التي تروّض طلابها بتدريب خاص يقوّي فيهم الانتباه وتركيز الفكر ؟ وعلاوة على ذلك فكلتا الرياضتين الجمنستيكية والعقلية تتبدّد فائدتهما ان لم تقترنا مع تناول الغذاء المناسب والانتظام في الأكل والشرب والنوم والتنفس الصحيح وضبط النفس. كل هذه يتعلم الطالب علماً ناقصاً عنها ، ولكنه لا يتدرب عليها تحت اشراف المعلّم. ولا يمارسها إلاّ القليلون. فأوّل وجه يجب اصلاحه في اساليب التربية هو استبدال التعلّم عن الأشياء بتعلّم الأشياء تعلّماً بالاختبار والتدريب.

ان التأثير المتبادل بين الرياضة البدنية والصحة الجسدية من جهة وبين الرياضة العقلية الاخلاقية من الجهة الثانية تابع للاعتماد المتبادل بين العقل والجسد . فالجسد مجبول بالعقل الذي يتخلله بواسطة الجهاز العصبي الى كل خلية من خلاياه . ولا حياة موحّدة له من دون العقل . والعقل باقترانه مع الجسد قد اتخذ الجسد واسطة لتفتّح المعرفة فيه بالاختبار ، وهو من دون الواسطة السويّة في الجهاز العصبي يستكنّ في حالة هجوع وغيبوبة كالحالة التي يكون عليها في النوم فلا يستظهر نفسه الى عالم الحس . ان عمل العقل يتوقف على حالة الجهاز العصبي ، وحالة الجهاز العصبي تتوقف على الدم ، وحالة الدم تتوقف على عمل الأعضاء والغدد ، وعمل الأعضاء والغدد يتوقف على الدم والجهاز العصبي . فكأنّ هذه الأعمال هي حلقات مترابطة في سلسلة مقفلة على نفسها في دائرة . اذا انقطعت حلقة واحدة تَعَطّل عمل الدورة كلها . واذا ضعف عمل احدى الحلقات ضعف عمل البقية أيضاً . ولو أدرك اساتذة التربية الارتباط الوثيق والاعتماد المتبادل بين العقل والجسم لأضافوا الى قولهم بأن العقل السليم في الجسم السليم النصف الآخر من الحقيقة وهو ان الجسم السليم في العقل السليم !

ويشبه الاعتماد والتأثير المتبادلان بين العقل والجسم نظيريهما بين التكهرب والتمغنط في الدينمو — المولّد الكهربائي المغناطيسي —

حيث ينشأ التكهرب بين قطبيه الكهربائيين من حركة قلب الدينمو بين قطبيه المغناطيسيين . ويثير التمغنط بين قطبي المغناطيس تيار كهربائي متشعّب من قطبي الدينمو نفسه . واذا انقطع مجرى التيار الممغنط او اذا ازدادت مقاومته فوق حدّ معيّن فلا يتولد تكهرب على قطبي الدينمو ولا ينشأ تمغنط بين قطبي المغناطيس فوق درجة ضئيلة جداً . فالدينمو في هذه الحالة هو كشخص على آخر رمق في التنفس ونبض القلب ، فاقد الوعي والشعور .

ان المصارعين والملاكمين لا يعتمدون على مجرد المصارعة والملاكمة لتقوية عضلاتهم بل هم يواظبون على تمارين خاصة علاوة على ذلك . ومثلهم الموسيقيون . لهم تمارين خاصة في العزف علاوة على عزف الألحان التي في الدواوين الموسيقية . اما طالبو العلم والمعرفة — والعلم والمعرفة اسمى من الملاكمة والعزف الموسيقي — فما أدري لماذا هم غافلون عمّا تنبّه اليه مَن هم دونهم في القوى العقلية المفكّرة ؟

وليس في هذا المقام مجال لتفصيل التعليمات والارشادات للتداريب الخاصة بارهاف الحواس وشحذ القوى العقلية . فقد ألّف وكتب في ذلك كثيرون . ومما نُشِر ما هو ارشاد صالح ، ومنه ما فيه بعض الخطأ ، ومنه تضليل نحذّر طالب المعرفة

منه . ولكننا نؤكد له انه اذا عقد نيّة صالحة منزهة عن توجيه المعرفة الى غاية دنيوية زمنية فالقدرة الالهية ترشده الى ما يصلح له في درجته من المعرفة . ولكن لا بد من الاشارة الى وجهة عظيمة الأهمية لطالبي العلم والمعرفة نؤكد عليهم بوجوب الاهتمام بها وممارستها والاستزادة من المعرفة المختصة بها ، فهي اساس لكل التداريب في ارهاف الحواس وشحذ القوى العقلية ، وهي ضرورة ممارسة ضبط الانتباه في الاصغاء والمطالعة والعمل . ويقترن مع الانتباه توجيه العقل وتركيزه على الموضوع أكان عملاً حسّيّاً ام تفكيراً مجرداً ام قراءة . كل منا يعرف مقدار ضعفه من تشتت افكاره وتنقلها من موضوع الى موضوع اثناء القراءة والمطالعة او الاصغاء او العمل ، وذلك حين يطلب منه تركيز الفكر على الموضوع الذي امامه . لا فهم في القراءة ولا اتقان في العمل من دون تركيز الفكر والانتباه . كلما شرد فكرك عن الموضوع الذي امامك ارجعه اليه كما ترجع الحصان الجموح باللجام . وابتعد قدر الامكان عن كل ضجة وجلبة تشرّد الفكر خصوصاً اثناء الدراسة والمطالعة والتأمل . ونشير بهذه المناسبة الى الخطأ الفاضح الشائع بين جمهور كبير من طلاب الاقطار العربية وهو ارتيادهم المقاهي والملاهي متأبطين كتبهم للدراسة والمذاكرة . ونتعجب من اساطين التربية وعلم

النفس المسؤولين عن امر كهذا مخالف للمبادىء الاساسية في علمهم ، كيف لا ينهون تلامذتهم عنه . مارس تركيز الفكر من دون ان يشرد او يتشتت اولاً على اشياء محسوسة امامك ثم على صورة ذهنية او فكرة مجردة . ولا تحاول ان تصغي الى غناء في آن واحد وانت تقرأ وتطالع كما يفعل جمهور الطلاب المشار اليهم .

ولا بدّ لنا في ختام هذا الفصل من الاشارة الى العلاقة بين ارهاف الحواس وشحذ القوى العقلية وتدرّج تفتّحهما وارتقائهما والى الغاية من كل ذلك : الى المحجة التي نسلكها والهدف الذي نصل اليه . ليس بين ارهاف الحواس وشحذ القوى العقلية حد فاصل ، ولا لأحدهما كيان مستقل عن الآخر . فالتدريب لارهاف الحواس يقتضي توجيه القوى العقلية وتركيزها واشتراكها فيه خصوصاً قوى الانتباه والتيقظ والملاحظة والذاكرة . والتدريب على شحذ القوى العقلية يقتضي ارهاف الحواس أساساً له .

ان الاحساس هو من عمل العقل مثلما التفكير المجرد الواعي هو عمل عقلي . لكننا قد اعتدنا ، تبعاً للتحليل العلمي والتصنيف والتبويب ، ان نقصر عمل العقل على التفكير الواعي ، وان نفصل بين الاحساس والتفكير مثلما بين الادراك الحسي

والادراك العقلي كما لو كان الواحد مستقلاً استقلالاً تاماً عن الآخر في الحالة النفسية السويّة . قد يمكن ان نعتبر بعض اختباراتنا البدائية كالشعور بالحرارة والبرودة ادراكاً حسيّاً صرفاً وبعض الاختبارات التفكيرية كالتحليل الرياضي والمنطقي ادراكاً عقليّاً صرفاً ، لكن بين الاثنين تدرّجاً متواصلاً بحيث لا نتمكن من تعيين خط فاصل بينهما . وهذا التدرج مماثل لتدرج ألوان الطيف الشمسي المتواصل كما نراه في قوس قزح حيث نميّز ألواناً مختلفة ، لكننا لا نتمكن من تعيين خط فاصل بين الأزرق والأخضر او بين الأخضر والأصفر مثلاً . وكذلك بين الحرارة والضوء من جهة الادراك الحسي فرق شاسع ولكن علم الفيزياء قد بيّن ان الحرارة والضوء كلاهما تموّجات اثيرية من نوع واحد يختلف الواحد عن الآخر في الدرجة كما تختلف ألوان الطيف الضوئي بعضها عن بعض ، وطيف الحرارة غير المرئي يجاور اللون الأحمر في الطيف الضوئي المرئي. فالادراك الحسي والادراك العقلي في طيف الانسان هما كالحرارة والضوء في طيف التموّجات الأثيرية .

ان نظام تدرّج الانسان في تفتّح قواه العقلية يبدأ بالادراك الحسي ثم بالادراك العقلي . وتبعاً لذلك يجب ان يتوافق نظام التعليم الموضوع مع نظام الحياة السرمدي .

ان احساسنا بالحرارة والضوء هو ادراك حسي ، لكن اعتبارهما تموّجين من نوع واحد مختلفين في الدرجة في طيف التموجات الأثيرية المتواصل من التموجات الكهربائية المغناطيسية على الطرف الواحد الى الأشعة الكونية على الطرف الآخر هو ادراك عقلي . ولكن هذا الادراك العقلي مؤسس على ذاك الادراك الحسي ولا وصول لنا اليه إلاّ عن طريق الاختبار الحسي . وكذلك علم الحساب هو ادراك عقلي مجرّد ولكنه مؤسس على عدّ الأشياء المحسوسة ، وكل معلم في الحساب يتعلم ان يعلّم المبتدىء اولاً ان مجموع تفاحتين وثلاث تفاحات يساوي خمس تفاحات ثم ان يتدرج الى تجريد العدد عن المحسوسات كما في التعبير الرمزي المجرد : ٢ + ٣ = ٥

ان جميع مراتب الأحياء تتأثر بالحرارة والضوء تأثراً من نوع واحد لكنه مختلف في درجته تبعاً لكون الحرارة والضوء تموّجين اثيريين من نوع واحد لكنهما مختلفان في الدرجة على نحو ما هو معروف عن تأثر النبات بالضوء وتركيبه مادة اليخضور منه . لكن النبات وبعض فصائل الحيوان الدنيا لم تتفتح فيها حاسة البصر . ثم ان تفتّح حاسة البصر في الحيوان والانسان لا يغنيهما عن التأثيرات الضوئية التي تصلهما عن طريق غلاف الجسد . وكذلك يلتقط جلد الانسان تموجات اعلى مرتبة

من التموجات الضوئيـة كالأشعة التي فوق البنفسجية والأشعة السينية واشعاعات الراديوم من دون ان تكون قـد تفتحت فيه حاسة يبصر بهـا تلك التموجات كما يبصر الضوء بعينه. ولا غنى له عن التقاط الضوء وتلك الاشعاعات والتموجات بواسطة جلده كما هو معروف وشائع تطبيقه في التـداوي بنور الشمس والأشعة الاصطناعية.

ومثلما تفتحت في الانسان حاسة البصر لتزيـد تأثره بالضوء وتوسّع اختبـاره ومعرفته بواسطة التموجات الضوئية فوق الدرجة التي يتأثر بها النبات من الضوء كذلك ستتفتح في الانسان حاسة تبصر التموجات الأثيرية التي يتأثر بها جـلده مثلما تبصر عينه الضوء الآن. هذا فيما يتعلق بتدرج قوى الحس في مراتبها وتدرج تفتحها في الأحياء والانسان. اما قوى الادراك العقلي فهي اعلى مرتبـة من قوى الادراك الحسي على نحو مـا حاسة البصر هي اعلى مرتبة من تأثر الجلد بالتموجات الضوئية. ومثلما حاسة البصر لا تغني الانسان عن حـاسة الجلد التي تتأثر بالضوء كذلك لا تغنيـه قوى الادراك العقـلي عن قوى الادراك الحسي. كل قوة تتفتح في الأحياء وفي الانسان على مرتبة اعلى مما كان متفتحاً فيه تأتي متممة ومكملة للقوى التي كانت، لا ناقضة اياها او مغنية عنها. حتى اذا بدأ الانسان مرحلة المعرفة

النهائية بتفتّح قوى الرؤيا الروحيـة فوق قوى الادراك العقلي يصبح حينئذٍ مستغنياً عن التجسد المادّي والحواس الجسمانية . لكنـه يظل في حالة تجسّد نوراني هو للعقل كالتجسد المـادي للحواس . وبوصول الانسان الى المعرفـة الانسانية الكاملة يستغني عن التجسد النوراني ايضاً منتقلاً الى حالة الفناء في الروح الالهي السرمدي .

لا تقل اين نحن من تلك الغاية البعيدة حتى نفكر بهـا . فمجرّد اتجاهنا نحوها بكل قوانا ومن كل قلبنا يحوّل مجـاري حياتنا ويغيّر الجوّ النفسي الذي يكتنفنا مرجّحاً فيه الغبطة على الألم . وكل نفس انسانيـة مهما كانت حقيرة في نظر العـالم ستصل الى تلك الغاية في الأجيال الانسانيـة المقبلة . فلنبدأ حيث نحن بارهاف حواسنا وشحذ قوانا العقلية متذكرين اننـا لا نرتقي درجة حتى نتمم الدرجة التي قبلها على الوجه الكامل . ولنعرف جيداً ان الحياة لا تعطي درجة نجاح مزوّرة كمدارس هذا العصر .

طريقان يتلاقيان

ان اساس المعرفة العلمية عن الكون هو الصورة الذهنية المرتسمة في الوعي العقلي بواسطة الحواس . فهي بموجب اصول المعرفة العلمية تعتبر صورة صحيحة للكون الخارج عن العقل المستقل عنه بقطع النظر عن كيفية ارتسامها وتحقيق انطباقها على الأصل . وهي قضيّة اوّليّة تقبل كما هي . فالعقل بحسب هذا الاصطلاح سجين يراقب الكون الخارج عنه من نوافذ سجنه . وجهة النظر العلمية تصوّر تموّجات صادرة عن الأشباح الكونية تقع على اجهزة الحس فتحدث سلسلة من التأثيرات التي تتتالى على الأعصاب منتقلة عليها الى مركز الجهاز العصبي وتنتهي بوعي العقل صورة الشبح . فكأنّ الكون يتجمع في مركز دائرة العقل والنفس لتتعرف النفس اليه . والاثبات العلمي على ذلك هو ان انقطاع سلك العصب الواصل بين المركز وجهاز الحس الخارجي يمنع ارتسام الصورة في الوعي العقلي .

واذا نظرنا الى الأمر من الجهة الأخرى نرى ان الصورة لا ترتسم في الوعي العقلي ما لم يوجّه العقل بالانتباه الى خارج المركز ، ولا العقل يراها في المركز بل في موضعها خارجة

عنه . فكأنّ العقل قد اشعّ من مركزه واتصل بالكون وتخلله حتى وعاه . واذا تسلطت على العقل قوة تمنعه من الاشعاع الى خارج مركزه كما يحدث في النوم أو بتوجيه قوة ارادية من عقل فرديّ آخر فلا يعود يعي صور الاشباح التي تحيط به مع ان تموجاتها تقع على اجهزة الحس وقوعاً متواصلاً كما في حالة الوعي السوية .

وجهة ترينا الكون متجمّعاً في مركز النفس والعقل ووجهة ترينا النفس والعقل مالئين الكون . فأيتهما صحيحة ؟ كلتاهما ! اسعَ الى معرفة الكون ترَ ان النهاية التي تصل اليها هي معرفة نفسك . اسعَ الى معرفة نفسك تصل الى معرفة الكون . وليس في ما نقوله مجاز . قد يصعب شرح ذلك شرحاً مفصّلاً بمنطق العلم الحديث ولغته ولكنه ممكن . انه لمن سرّ الحياة وسحرها ان العقل اذا لجّ في معرفة الحقيقة القصوى قبل ان تتفتح فيه بداية الخيال يراها بالاقتراب منها كأنها ذات وجهين متناقضين كما في تجمّع الكون في مركز النفس واتساع النفس لتملأ الكون ، وكما في كون اللذة والألم من منبع واحد ، والموت والحياة سببهما واحد : اذ كل لقمة تحيي الجسد تترك حصتها من الرواسب التي يموت بها الجسد . فكل لقمة فيها الحياة للجسد فيها الموت ايضاً .

قلّ من الناس من تهمّه الحقيقة القصوى في ماهيـة الكون ونفس الانسان وناموس الحياة . وكثيرون هم الذين يظنون ان العلم الحديث هو نهاية المعرفة وكلها مثبتة بالبرهان النهائي . ويقترب موضوع المعرفة القصوى من القلوب اذا مثّلنا عليه ببعض الاسئلة كالتالية : هـل نفس الانسان هي حقيقة ابدية ازلية ام هي رقصة ذرات من المادة تآلفت صدفـة بانتظام ثم ينفرط عقدها فتتلاشى النفس وتضمحل ؟ هـل في الكون روح ومادة ؟ ما هو الروح ؟ ما هي المادة ؟ ما هو العقل ؟ ما هي الحياة ؟ وهل ناموس الحياة هو التنازع لأجل البقاء ام هو المحبة الشاملة ؟... الى آخر ما هنالك من المبادىء الأولية التي هي أساس العقائد المذهبية وطرائق الناس في حيـاتهم . ان بعض المفكرين يتوقون الى معرفة شيء من هذه الأوليات الأساسية . والى معرفتها طريقان يتلاقيان ، وينتهيان حيث يبدآن ، وذلك في نفس الانسان . اذا استقصيت المادة بأسلوب العـلم الحديث لتعرف ماهيتها وحقيقتها ، حَرّك البحث والاستقصاء في الاتجاه المتباعد عن الحس والخواص المادية المحسوسة الى جوّ العقـل والفكر المجرّد الصـافي . وذلك ما وصل اليـه العلم الحديث بالفعل . واذا استعنت بالاجهزة الحسية العلمية الحديثة لاستقصاء حقيقة العقل والفكر حَرّك البحث والاستقصاء من جهـاز الى

جهاز – وكل جهاز يمثّل مبدأ من مبادىء المعرفة العلمية عن الكون – حتى تستوعب الكون كله قبل ان تصل الى نهاية المعرفة عن العقل والفكر والنفس . وهكذا ترى ان قوانين العقل والحياة الباطنة متصلة بقوانين المادة الظاهرة .

واذا نظرنا الى اساس المعرفة العلمية الذي هو الصورة الذهنية للكون المرتسمة في الوعي العقلي نرى ان استقصاء حقيقة الصورة الذهنية يؤدّي الى استقصاء حقيقة النفس وذلك عن طريق استظهار عمل العقل الباطن الى حيّز الوعي العقلي . ومعنى ذلك هو فهم العقل نفسه بانعكافه على نفسه بالتأمل الباطن حيث يتابع العقل الواعي عمل العقل الباطن فيعيه ويتسلط عليه بالارادة . واذا بلغ العقل تلك الدرجة القصيّة فيمكنه عندئذ استجلاء حقيقة الكون والتسلط على قواه بتوجهه اليه . تلك هي طريقة المتصوفين وهي أصعب الطرائق ، ولا يسلكها إلا القليلون الذين اعطي لهم الاستعداد لها .

وماذا يعنينا من كل ذلك نحن الذين في الدرجة المتوسطة من الانسانية ؟ ما لنا ولنهاية الطريق ونحن لا نكاد نعرف بدايتها ؟ وكيف ومن أين نبدأ اذا أردنا ان نختبر شيئاً من مبادىء المعرفة العليا القصوى والبرهان على صحتها ؟ فالمعرفة هذه لا يصل اليها الاثبات بالبرهان على النحو المألوف في المنطق

والعلم الحديث . وابناء هذا العصر يريدون البرهان ! ان البرهان العلمي المنطقي مبنيّ على أوليات تقبل من دون برهان . وما البرهان سوى الدلالة على توافق الأشياء المبنية على تلك الأوليات . والمعرفة العليا تبدأ بتحقق صحة الأوليات التي هي اسس العقائد وطرائق الناس في حياتهم . اما الاثبات بالاختبار العمليّ فهو محكّ الصحة لا في المعرفة العلمية فقط ، وليس هو من ابتكار العلم الحديث كما هو مزعوم ، ولكنه محكّ الصحة في المعرفة العليا ايضاً . كان المعلمون الروحانيون والانبياء يقولون لعامة الناس : قد أُعطينا هذه المعرفة من فوق ، وكانت عامة الناس تصدقهم . وكانوا في بعض المواقف — غالباً للذين يطلبون البرهان — يقولون : اتبع الطريق الخاص تختبر البرهان بنفسك . وقد غفل أتباع العلم الحديث عن هذا القول في اعتراضهم على سلطة التعليم الديني بانه قول بشيء لا برهان عليه .

الاثباتات والبراهين درجات ومراتب . منها ما هو قريب تتمكن الأكثرية من ادراكه ، ومنها بعيد لا تدركه إلاّ الأقلية التي لها الاستعداد . وما على الاكثرية سوى ان يقبلوا بصحة ما يقال لهم ان يصدّقوه ويعملوه بناء على ثقتهم بصدق وأمانة الأقلية التي بلغت وادركت البرهان . ولا بدّ من ان يثبت لهم اختبار الحياة في النهاية صحة ما قبلوا به بدائياً . ويكون

هذا الاثبات بشكل شعور عميق راسخ لا يقلقه شك . ومثلما يوجب الاختبار العلمي العملي ضبط جميع العوامل المشتركة في أثر واحد كذلك في المعرفة العليا للنفس والحياة يجب التقيد بجميع شروط الحياة الصالحة وذلك بضبط النفس عن جميع الشهوات التي تزيغ العقل عن المعرفة الصحيحة . مثال : امتنع عن مقابلة الشر بالشر تحصّن نفسك فلا يمسها شرّ . والاثبات على صحة ذلك هو الاختبار العملي باتباع جميع شروط الحياة الصالحة . اذا مشيت على الطريق ترى انه لا يمسك شر . ولكنك لا ترى الصلة الباطنة بين الأسباب والنتائج المتعانقة المؤدية الى النتيجة المنتظرة . هذا هو الاثبات بالاختبار العملي .

اما الاثبات بالبرهان العقلي فيستظهر جميع الصلات بحيث ترتسم في ومضة فكرية واحدة صورة شبكة الأسباب والنتائج في الوعي العقلي فيرى العقل الأسباب والنتائج مترابطة متعانقة بعضها مع بعض . وهذه الرؤيا المباشرة هي معرفة صحيحة برهانها في ذاتها. البرهان المنطقي الاعتيادي هو تبيينك بالاستنتاج صلة خافية بين ظاهرتين . اما البرهان العقلي الباطن فهو استشفاف الصلة بحيث تدرك بالاختبار المباشر بالرؤيا لا بالاستنتاج. وهذا هو عين ما أشرنا اليه في ما سبق من البحث عن طريقة المتصوفين . والقوى العقلية التي تستشفّ حجب المادة وتستظهر

الباطن الذي وراء الحواس هي قوى اعلى مرتبة من القوى العقلية التي تعمل على مستوى المعرفة العلمية والمنطق .

ولنعد الآن الى السؤال : أين هي بداية الطريق ؟ وكيف نبدأ ؟ ان الأكثرية من البشر هي في مرحلة الاختبار الحسّي المكمّل في اقلية منهم بالاستقراء والاستنتاج وبالتحليل العقلي والتركيب . وهؤلاء الذين وصلوا الى بعض المعرفة الصحيحة على هذا المستوى لا تزال عالقة بهم بعض الأوهام والخرافات من مستوى عقلي دونه . ويرافق ذلك المزيج من المعرفة الصحيحة والأوهام شيء ضئيل جداً من مبادىء المعرفة العليا المتفتحة بأوّليّات الوعي النفسي . ويظهر كل من هذه المراتب الثلاث من المعرفة في نفس كل فرد ظهوراً بارزاً تبعاً للحالة النفسية العابرة المؤاتية لها المتوافقة معها .

ان بداية تفتّح المعرفة في الانسان والارتقاء من مرتبة الى مرتبة يتدرج تبعاً لتدرج وارتقاء الوعي النفسي ولارهاف الحواس وتهذيبها ولشحذ القوى العقلية . والوعي النفسي بالتأمل الباطن هو مفتاح هذه كلها . ان توجيه الفكر توجيهاً متواصلاً وتركيزه على النفس يؤدي الى الوثوق من حقيقتها الأبدية الأزلية . حينئذٍ يشعّ من مركز النفس نور سلام واطمئنان يجعل العقل نيّراً والتفكير صافياً والمعرفة راسخة اذ تصبح المعرفة مرتكزة

مؤسسة على حقيقة النفس الأبدية الأزلية . هـذه هي بداية الطريق . ولا يهتدي الى طريق من كانت نفسه غريبة بعيـدة عنه او من كان عائشاً خارج نفسه على مستوى الاختبار الحسي البدائي . المتصوفون يتابعون التأمل الباطن الموجه الى مركز النفس والعقل متابعة متواصلة ويكفّون العقـل عن الاندفاع بواسطة نوافذ الحس الى خارج مركز النفس . وبرياضتهم هـذه تتفتح فيهم القوى النفسية العقليـة على مستوى اعلى فأعلى من بقية الانسانية . والسواد الأعظم من النـاس يتعرفون الى نفوسهم معرفة اولية سطحية في فترات قصيرة اهمها سن البلوغ وسن الرشد ومن بعد ذلك يهجرون انفسهم ولا يعودون اليها بالتأمل الباطن حتى ساعة فراقهم هذه الدنيا . هؤلاء تظل قواهم العقلية ومعرفتهم على مستوى واحد طول عمرهم . وبين هاتين الفئتين فئة قليلة العدد من المفكرين يترددون مرة بعد مرة الى نفوسهم . وكل مرة يعودون بها من فـترة التأمل الباطن الى عالم الحس ترتقي قواهم العقلية درجة الى مستوى جديد . هؤلاء يتابعون الرياضات والتداريب الخاصة لارهاف الحواس وشحذ القوى العقلية وضبط النفس .

طريقان يؤدّيان الى الهدف . احدهما مماثـل لطريق الجو فوق طبقة الأنواء والعواصف . والآخر مماثل لطريق البر

والبحر . وفئة المفكرين التابعين طريق التفكير المجرّد المبنيّ على الاختبار الحسي هم كمن يحلّق في الجوّ تحليقاً محليّاً في نهاية كل مرحلة وبداية التالية فيرى قسماً من المرحلة المطوية وقسماً مما يليها . ثم يعودون الى مواصلة سيرهم عن تبصّر اكتسبوه من تحليقهم المحلي . واما الذين قد هجروا انفسهم فليس لهم اقلّ دليل يعينهم على اتّباع الطريق . فهم يتيهون ثم يعودون الى الطريق ثم يتيهون . . .

اعرف نفسك

« فوق كل معرفة اعرف نفسك » هو قول مأثور تردّده ألسنة كل جيل وينزلق عنها انزلاقاً سلساً مثلما ينزلق معناه عن العقل من دون ان يعلق به . هذا هو شأننا مع كل شيء الفناه من دون ان نفهمه او نسعى لتفهّمه. فازدريناه. وقد يكون فيه جمال يؤنس نفوسنا المستوحشة فنعمى عنه ، وغذاء يحيي نفوسنا الجائعة فندوسه بارجلنا .

من عرف نفسه فقد عرف الكون ، وبالمعرفة القدرة للتسلط على قوى الكون الظاهرة والباطنة . وعلى قدر معرفة الانسان لنفسه يكون مخيَّراً في امره ، وعلى قدر جهله يكون مسيَّراً بمشيئة الاقدار ، المشيئة الكلية الشاملة. ليس لمعظمنا الاستعداد لقبول هذا القول او لتقدير المعنى الذي يتضمنه . ولكن هنالك وجهة تمكننا من امعان البصيرة في باطنه الى حدّ بعيد . انّ حضارة هذا العصر ما هي سوى مظهر من مظاهر تسلّط الانسان على القوى الكونية وتسخيرها لحاجاته . وقد كان تسلّطه هذا تابعاً لايقاظ قواه العقلية وشحذها. من يعرف نفسه يعرف القوى

العظيمة الهاجعة فيها فيعرف كيف يوقظها ويشحذها ويديرها فتمتثل القوى الكونية طوعاً لها على نحو ما الفناه من طوع القوى الميكانيكية والحرارية والكهربائية لارادة الانسان. الفناه عن غير فهم لمعناه الباطن ومن دون تقدير لعظمة القوى التي في حيّز النفس الانسانية واتصالها بكل ما في الكون .

وقد اعتدنا استعمال بعض قوانا العقلية في تتبّع العلوم واستقاء المعرفة عن غير وعي لعملها وارتباطها بالارادة ، ومن دون تقدير لعظمتها وقداستها ، وبكفّ النظر عن مداها وغايتها. فهي لانفسنا مثل آلة اوتوماتيكية نشغلها من دون ان نفهم كيفية عملها الباطن ومن دون ان نفكّر بها او نعتني بها . ثم نوجّهها في اكثر الاحيان الى سوء الاستعمال لا الى عمل مفيد. وما عيادات الاطباء والمستشفيات والمارستانات والمحاكم والسجون الاّ مثل حوانيت الصنّاع المتخصصين لتعمير ما تخرّب من الآلات او لتتميم القضاء عليها . ولكل نفس في كل يوم تقصير وخيبة وحسرة فألم وانّة لا تصل الى عيادة ولا تطلب لها النفس استشارة ولا مداواة .

تصوّر طالب العلم الذي يوجّه قواه العقلية للوصول بالاستنتاج والاستقراء الى حيث لا تصل الحواس — الى معرفة النتائج قبل اكتمالها ووقوعها او الى معرفة الاسباب التي مرّ

عليها الزمن. او تصوّر الطالب يدرس الرياضيات والفيزياء فيجمع جمع التكامل من اللانهاية الى اللانهاية في ومضة فكرية كلمح البصر. او انظر الى معظم ابناء هذا الجيل ، عامتهم وخاصتهم ، يجلس الواحد منهم الى جهاز الراديو الملتقط وينطق الكرة الارضية في دقيقة لا فكر ولا همّ له سوى التقاط خبر تافه او استماع اغنية بليدة من دون ان يخطر على باله خاطر يسمو به الى التأمل في عظمة العقل والفكر الذي يجوب الكون من اقصاه الى اقصاه كوميض البرق. لو خامر فكر طالب العلم اقل شيء من هذا التفكير والتأمل لربأ بنفسه عن ان يحوّل مجرى افكاره الى التلهّي بالسخافات والترهات او التلذذ بالشهوات التي تترع عقل هذا الجيل وتفكيره.

انّ بداية العلم وولوج عتبة المعرفة هما في وعي الانسان نفسه الفردية والوثوق بانها ابدية ازلية وهي الحقيقة الاساسية التي تسند اليها المعرفة . بهذه اليقظة تستعد النفس لاقتبال المعرفة المتفتحة فيها مستعينة بما تفتح فيها من القوى العقلية ، وهذه من بعد استنادها الى حقيقة النفس تتصل بالكون فتمنطقه ثم تعود فتنعكف على مصدرها لاكتناه سرّه ولايقاظ الفوج التالي من القوى الكامنة الهاجعة فيه لانها — اي القوى العقلية — تصل في المعرفة عن الكون الى حدّ لا يمكن اجتيازه الى مرتبة اعلى منه

الاّ بالرجوع الى مصدرها لاستيحائه .

انّ في حياة الفرد مراحل قد ميّزها علماء النفس وعاينوا التطورات النفسية التي تنشأ في بداية كل مرحلة وما يقترن معها من التطورات الجسدية وما يظهر معها من التغيّر في تفكير الفرد وتصرّفه . وقد ميّزوا اكثر من مرحلة قبل سنّ البلوغ التي يتمّ فيها اعظم التطوّرات والتغيرات في حياة الفرد . وما بداية كل مرحلة سوى عودة النفس الى نفسها من بعد التجوال في الكون المحيط بها . وبعودتها تحصل يقظة تتفتح فيها قوى جديدة ترجع بها النفس الى الكشف عما تشتاق الى معرفتهِ من اسرار الكون .

ان يقظة سنّ البلوغ وما يخامرها من توسّع الوعي النفسيّ وتفتّح بعض القوى النفسية والروحية وتدرّج القوى العقلية وارتقائها الى مرتبة اعلى مما كانت عليه تنتهي عند سواد الناس ببلوغ الفرد سنّ الرشد حين يهجر الانسان نفسه فينهمك في الدنيا ويتلهّى بها . ومعظم الناس لا يعود بعد ذلك الى نفسه ومناجاتها الاّ في سكرة الموت حين تفارق النفس منزلها الوقتي. فهو — اي الفرد العاديّ — قد قارب ذروته في المعرفة في الحين الذي لا يزال امامه القسم الاعظم من مرحلة العمر فيقضيه على وتيرة واحدة ومستوى لا يتغيّر من جهة المعرفة والفهم الاّ

تغيّراً ضئيلاً. وما خبرة العمر وحكمة الشيخوخة عند اهل الدنيا سوى تضخّم في حطامها المجموعة وحيلها المتقنة . هي سراب تصوره الاوهام في جوّ الشهوات الدنيوية لمن عاش منقاداً اليها. ها هم الكهول والشيوخ في افراح الدنيا واحزانها ، في التهانىء والتعازي، وفي الامور الخطيرة التي تنتابهم يردّدون عين العبارات التي كانوا يرددونها في شبابهم . وان كان بعضهم قد امتنع عن التمتع بما يتمتع به الشباب فذلك غالباً عن عجز لا عن فهم . لا اقول هذا امام معشر من الشبان لكي يتهكموا على من تقدّموهم في الزمان. فالشبان سائرون في خطاهم على نفس الطريق ، فهم دونهم في الخبرة والمعرفة ولو قيد شعرة . ومن كان رائده المعرفة فلا يتهكّم ولا يشمت بل يعطف ويشفق. ومن اراد ان يكون محبوباً في آخر ايامه فعليه ان يحب ويعطف على من بلغ اواخر مرحلته. ولا يغرب عن بالنا انه لم يخلُ جيل من الانسانية من افراد قلائل ساروا على غير الطريق المطروقة فلم يهجروا انفسهم بل كان رائدهم زيادة معرفتهم اياها ، ولم ينجرفوا مع التيار ، ولم تصمّ آذانهم جلبة العالم ، ولكنهم بلغوا سن الشيخوخة او فارقوا الدنيا قبل ذلك وهم يعلّمون اخوانهم في الانسانية. وقد تكون مهنة الكثيرين منهم غير التدريس والقاء المحاضرات.

ان الفرد في تطوّره النفسي والعقلي والروحي منذ الولادة

الى بلوغ الرشد يمثّل في فترة قصيرة خلاصة التطورات التي مرّت بها البشرية في مراحلها الطويلة اثناء الاجيال التي لا تحصى. فسنّ الطفولة تمثّل الانسان البدائي العائش على الفطرة المسيّر بالعقل الغريزي ، وسنّ الثالثة والسابعة وسن البلوغ تمثّل درجات اليقظة الى الوعي النفسيّ وتبلور الارادة وتفتّح القوى العقلية على مستوى فوق الغريزة وهي القوى المفكرة في جميع مظاهرها المألوفة. وسنّ الرشد تمثّل بلوغ الانسانيّة في متوسط افرادها الدرجة التي وصلت اليها من تفتّح واستيقاظ القوى الكامنة في بذرة الحياة . وما هجر الانسان نفسه بعد البلوغ والرشد سوى دور في حياة الانسانية تسخّر فيه القوى الجديدة المتفتحة لخدمة الشهوات . وفي هذا الدور نلاحظ التناقض الذي ينشأ في حياة الانسان ويصعب على الكثيرين تفسيره ، وهو ارتقاء الانسان بالعقل المفكر فوق الحيوان وانحطاطه في الشهوات والشر الى درجة لا نتردّد في وصفها بانها دون درجة الحيوان.

ان اتمام وظائف الحياة على السنّة السويّة اي على النظام المركّز في العقل الغريزي الفطري تقترن معه نشوة نفسية هي خاصة خواص الحياة ، وهي نشوة طاهرة صافية خالصة من كل كدر لانها هي المحبة قوام الحياة ورابطة روابط الكون. ولكن الانسان بتفتح قواه العقلية وبتمييزه النشوة وتجريده اياها عن

وظيفة الحياة المقترنة بها قد حوّل الميل الغريزي الذي لا شرّ فيه الى شهوة تميّز فيها الخير والشرّ. وبسعيه وراء النشوة وحدها قد جعل من النشوة لذة فجاءه من تفريقها واراغتها عن وظيفة الحياة ألم وشر وهو شرّ النهم والزنى. وقد خلق لنفسه بهذا التفريق وهماً آخر هو وهم انفصال ذاته الفردية عن الذات الكلية الشاملة فنشأ تبعاً لذلك ولسعيه وراء اللذة شرّ آخر هو شرّ الخلاف والاعتداء والنزاع. ويمكننا ان نفسّر شجرة معرفة الخير والشر التي اكل آدم من ثمرها انها تصوير رمزي لانتقال الانسان بتفتح قواه العقلية الى هذا الدور من التطوّر حيث يتوهم انفصال نفسه الفردية واستقلالها عن النفس الكلية ثم يسخّر قواه العقلية المتفتحة لايقاظ ميوله الطبيعية من هجعتها الدورية السويّة واحمام دمه في حثّها على طريق غير الطريق والى غاية غير الغاية التي جعلت لاجلها. ثم يوجه القسم الآخر من مساعي ذكائه لمداواة نفسه من الآلام التي جلبها على نفسه باوهامه. واعظم نكبة حلّت بالانسان في هذا الدور هي تحوّل نشوة الحياة في تحصيل الرزق الى كدّ مؤلم اذ قيل له: «بعرق جبينك تأكل خبزك.» ان عمل الانسان في تحصيل رزقه هو اشتراك وتعاون مع الطبيعة في الخلق والانتاج، فهو من هذه الوجهة عمل مقدس فيه نشوة خالصة. وهو في نظري اساس كل تدريب

يؤول الى تفتّح البصيرة والمعرفة وتهذيب النفس . ولكنه قد تحوّل بفرط ذكاء الانسان الى كدّ مؤلم . فهو يحاول ويحتال لكي يتخلص من الكدّ. او هو قد جعل العمل في الحياة واسطة للربح فوق ما يحتاج اليه لحاجات الحياة، وجعل في الربح لذة تصبّره على احتمال الكدّ . ومن الوسائط المطروقة في هذا العصر للتخلص من كدّ عرق الجبين هي الشهادات المدرسية التي تجيز الفرد الى وظيفة عملها سهل ومكافأتها عظيمة . فالمدارس ومعاهد التعليم من هذه الوجهة تفسح المجال امام الفرد وتسهّل له الطريق الى الغاية الزائغة عن غاية الحياة الشاملة وقصدها . وما تضخّم مناهج الدراسة بالحشو الذي اصبح استيعابه ضنى على الطلاب ، وارتفاع اجور التعليم فوق قدرة الكثيرين ، وتمديد سني الدراسة حتى يتأخر الفرد عن البدء بتحصيل رزقه تأخيراً ينفد صبره، وما فوق ذلك من بوار الاعمال للكثيرين من حاملي الشهادات سوى تذكير لاولئك الافراد ان قانون الحياة ونظامها لا يُعبث به. فعلى قدر ما يعطي الانسان يأخذ. والغاية من العمل هي المعرفة لا الربح. امّا المكافأة اللازمة لأوَد الحياة الجسدية فهي نتيجة لازمة مكفولة للعامل الساعي وراء المعرفة . وما ألم الكدّ وعرق الجبين سوى نتيجة التفكير الزائغ ، ولا يخلّصُ الفردَ من ذلك الالم سوى تعديل تفكيره وتقويمه فيصبح وله

في العمل نشوة صافية .

ما معنى التعليم والتهذيب والتربية وما الغاية منها ؟ هذا سؤال قد يستغربه معظم القراء . ولكني اقول لمن يناجي نفسه ويسائلها : « ما هي الغاية التي من اجلها قصدت انا هذا المعهد ؟ وهل تطوّرت تلك الغاية اثناء اقامتي فيه؟ وهل عملي فيه موجّه توجيهاً مضبوطاً نحو تلك الغاية ؟ » اذا صدقت نفسك في المناجاة وقابلت جواب نفسك لنفسك مع اجوبة العلماء المربين الذين تدرس اقوالهم فيما تدرسه من علم التربية والتعليم وجدت فرقاً يقارب ان يكون هوّة بين جوابك واجوبتهم . وليسائل نفسه ايضاً مثل هذا السؤال كل من امتهن التعليم وكل من امّ معاهد التعليم العالي اما للعلوم العامة او للاختصاص المهني .

يولد الانسان في هذه الدنيا فيجد نفسه مغموراً في كون مادّي ومربوطاً بحبال لا مادّية ارتباط النقشة ببقية النقوش على بساط النقش الهندسي المعماري . فيختبر شيئاً من قوى الكون وتيّاراته التي تؤثر عليه ويشعر في داخله بقوى نفسية تحثّه على المحافظة على كيانه الجسدي ويتأثر ايضاً بالقوى النفسية التي تنشأ من بقية الاحياء الذين يتصل بهم ويرتبط معهم كل حياته ارتباطاً وثيقاً. وهو في تيارات الحياة — تيارات المادة والطاقة وتيارات النفس والعقل — يسيّر نفسه على قدر ما هو حرّ مخيّر

في ذلك وهمّه المحافظة على كيانه الجسدي خالصاً من الاذى والألم. فيجتذب اليه ما يشتهيه او ما يلزم له. او هو يسيّر نفسه معه ، ويجرّب ان يدفع عن نفسه او يبتعد عمّا يؤذيه . فهو باختباره يزيد معرفته بالكون لكي يتمكن من تسيير نفسه في التيارات التي يحافظ فيها على كيانه وصفاء عيشه. وعلى قدر علمه ومعرفته وفهمه يحصل على صفاء العيش ، وعلى قدر جهله يعلّق نفسه وينجرف في تيارات يتخبّط فيها ويتألم .

ان جلّ المعرفة اللازمة والتصرف الملائم لتواصل الحياة الفردية بالاقتران مع الجسد هو مركّز في العقل الغريزي يتفتح بالدرج حين تدعو الحاجة وذلك من دون تعليم . والمعرفة هذه لا تقتصر على ما في حيّز الوعي العقلي وعلى ما هو تحت سلطة الارادة بل قسم عظيم منها هو في حيّز عمل العقل الباطن الخافي عن الوعي المستقل عن الارادة .

ان الفرخ الذي ينقف البيضة في محضن اصطناعي ويربى في معزل عن بقية افراد نوعه يدرج في حياته ويتصرّف تصرّفاً لا نميّز فيه فرقاً عن تصرف الفرد الذي نشأ في حضانة امّه ودرج معها واختلط ببقية ابناء نوعه . وان كان الفرخ الذي ربي في العزلة انثى فهي لدى بلوغها تضع بيوضها وتحضنها. واذا وُضعت لها بيوض ملقحة فيكون تصرفها مع فراخها تصرّف امّ سويّة

ربيت مع نوعها. ومع ذلك فالطير يعلّم فراخه. يتأكد من ذلك كل من عاين دجاجة مع فراخها وعاين فراخ الطير اوّل طيرانها من العش وذلك بمعاونة الام والاب معاً وتدريبهما. ومثل الطير الذي نشأ في محضن اصطناعي ودرج في حياته معزولاً عن بني نوعه كذلك جراء الهرّة التي تفصل عن امّها وتربّى في معزل عن نوعها تدرج وتترعرع مثل الجراء التي ربيت مع امها. يعلم ذلك كل من عاين جرواً معزولاً منذ ولادته كيف يدلك صوفه بلسانه وكيف، من دون ان يعلمه احد، يفوق الكثيرين من بني الانسان في نظافته وذلك بمواراته اوساخه في التراب. ثم كيف يتحفّز ويثب تمرّناً على الصيد... الخ. ومع ذلك فالهرّة تعلّم جراءها ما يمكنها ان تتعلمه بتفتح القوى الغريزية فيها من دون تعليم. فكأنّ تعليم كبار افراد النوع صغاره هو ميل غريزي ايضاً وهو من صميم خواص الحياة.

قد يمكن ان يكون التعلّم مقتصراً على الاختبار الفرديّ فلا يتعلّم احد شيئاً حتى يختبره. ولكن يظهر ان قسماً كبيراً من اختبار افراد النوع المتوزع على مرحلة العمر كلها يمكن ان تؤخذ خلاصته وان تعلّم للجيل الناشىء فتكون خلاصة الخبرة المكتسبة بالتعليم في اوّل العمر اكثر فعالية وتأثيراً في حياة الفرد بعد بلوغه مما لو انتشر تعلّم تلك الامور الاولية على

طول العمر. ويتمكن الفرد بذلك ان ينجز من العمل في حياته اكثر مما ينجز من دون الاستعانة بتلك الخلاصة . وان لم يهجر نفسه بعد البلوغ للتلهّي بملذات الدنيا فيكون له الاستعداد للارتقاء الى مرتبة في المعرفة فوق المرتبة المتوسطة من ابناء جيله.

هذا فيما يتعلّق بالاختبارات الاجماعية التي يشترك فيها كل افراد النوع ، ومعظمها اختبارات حياة النوع المركّزة في العقل الغريزي. ولكن في الحياة اختبارات فردية يتفاوت فيها الافراد. والتفاوت بين افراد النوع الواحد من الحيوان هو تفاوت ضئيل . ولكنه بين افراد الانسان يصبح تفاوتاً عظيماً . وهذا التفاوت تابع لتفتح القوى النفسية العقلية التي فوق مرتبة العقل الغريزي وهي التي يتميّز بها الانسان عن الحيوان وهي تستوجب التعليم وتستدعي استطالة مدته في حياته لانها لم يمض عليها الزمن الكافي في حياة الانسان حتى تستقرّ في نفسه استقرار الغريزة . وتبعاً لذلك يظهر الفرق العظيم بين الانسان الذي ترك على فطرته من دون تعليم في حين انه لا يظهر مثل هذا الفرق بين افراد النوع الواحد من الحيوان. ولا يقتصر العلم والتعلّم الذي نعنيه ههنا على ما يتلقنه الطلاب في المدارس . لو اقتصر تعلّم الفرد على ما في مناهج المدارس لهلك معظم الافراد قبل بلوغ السن المدرسية ، ولهلك معظم الطلاب قبل انهاء دراستهم . ان

كثيراً من الامور الاساسية في حياة الانسان يتعلمها الفرد خارج المدرسة. ووظيفة المدرسة هي ان تكمّل ما يفوت الطالب تعلمه خارجها من المعرفة الانسانية العامة وان تضيف اليها بعد ذلك ما يماشي تفتح قوى الانسان بالتدريج مع تدرجه في الحياة. وتختلف المدارس بعضها عن بعض في ما تهمله من التعليم الضروري وما تزيده من الحشو الذي لا قيمة له.

ان المشاكل المختصة بالانسان ناشئة عن استخدامه القوى النفسية الواعية المتفتحة فيه جديداً لازاغة الغريزة الباطنة عن العمل في الاتجاه المتوافق مع نظام الحياة وناموسها ولخلق حاجات غير لازمة له في ايصاله الى غاية الحياة ولكنها اصبحت موهومة انها حاجات اساسية من قوام الحياة. وبذلك قد احدث الانسان تناقضاً في حياته فافسد على نفسه صفاء العيش ونشوة الحياة. ويظهر هذا التناقض لكثيرين من الباحثين في علم النفس والتربية انه تناقض في اساس الحياة وجوهرها ويزعمون ان في «طبيعة الانسان الغريزية» عوامل فاسدة يجب تهذيبها في بداية التعليم قبل توجيه التعليم الى بناء ملَكات وعادات جديدة تساعد الانسان على الوصول الى غاية سامية في الحياة. وبعضهم يزعم ان طبيعة الانسان لا يمكن تغييرها فعبثاً تتكلم عن الارادة وضبط النفس. فالميول «الطبيعية» في نظرهم هي في «طبيعة» الانسان خلقت له

للتمتع والتلذذ بها ، وعلمهم مقتصر على كيفية التمتع . وحين يقول امثال هؤلاء : « هذه هي طبيعة الانسان » فكأنهم قد قطعوا بهذا الاصطلاح كل حجة . وليس في حديث الناس اصطلاح اكثر ابتذالاً منه يتبجحون به لادعاء المعرفة ولاظهار الجهل عن غير وعي او قصد . ان ميول الانسان المماثلة لميول الحيوان المزاغة عن نظام الغريزة الصالحة وميوله «الفاسدة» التي لا يشاركه فيها الحيوان كالطمع والحسد والبخل وحب الربا والاستئثار ليست قديمة ازلية في نفس الانسان ولكنها حادثة طارئة على حياته منذ ان تفتحت فيه القوى العقلية النفسية فوق مستوى الحيوان . والانسانية ستعود حتماً الى التغلب عليها والترفّع عنها . قد يستغرق هذا التطور اجيالاً عديدة حتى يعمّ الانسانية . لكن الفرد الذي يصمّم ارادته على ذلك يمكنه بلوغه حتى في مرحلة عمر واحد .

ان التعليم الخاص بالانسان اللازم لحلّ مشاكله الخاصة هو ذو مرتبة اعلى من التعليم للحيوان ، وهو يستوجب الوعي النفسي لتفهّم القوى المتفتحة فوق الغريزة وتفهم عمل الشهوة في ازاغة الغريزة وفي خلق سراب يضلل القوى العقلية الواعية . ونحن نرى ضلالة فاضحة في عقيدة كثيرين من علماء النفس والتربية الحديثين انّ تعلّم الانسان وتعلّم الحيوان هما من نوع واحد . فتراهم

يجرون الاختبارات والتجارب العملية لدرس التعلّم في الحيوان لكي يطبقوها في تعليم الانسان وتربيته. ان تفهّم القوى النفسية الباطنة والواعية هو من معرفة النفس وهو الذي يعود بالنفس الى الامتثال لنظام الحياة امتثالاً عن وعي يفوق الامتثال عن غير وعي الذي هو من خواص الجماد والحياة الفطرية الغريزية.

هذه الوجهة من البحث توصلنا الى اعمق ابحاث النفس والتربية ولا يوفّي حقها من البحث الاّ دروس متواصلة سنين عديدة. ولكن الفكرة التي اريد ان اوجّه القارىء اليها هي ان النظام هو اساس الكون في كل مراتب الوجود: في ما نسميه جماداً وفي الاحياء وفي النفس والعقل، وان اسمى مراتب المعرفة هو في امتثال النفس امتثالاً عن وعي لنظام الكون والحياة ومطاوعتها اياه. تأمّل مادة بلّورية ترَ بعينك الانتظام الفائق في تركيبها. وسل علماء الفيزياء والكيمياء عن الانتظام في قوى الكون وفي مطاوعة المادة لها، والفلكيين عن انتظام الافلاك في دورتها، ثم انتقل الى الاحياء التي لا تزال على العقل الغريزي كقفير النحل او قرية النمل ترَ فيها من الانتظام واطاعة النظام ما يدهشك. او انظر الى عمل العقل الباطن في جسد الانسان ترَ الدقة والانتظام في عمل القلب وفي تركيب الدم وفي افراز الغدد وفي ادارة الجهاز العصبي وتنظيمه. ترَ ما

يكلّ عن فهمه وادراكه ذكاء العقل الواعي . ففي قفير النحل او في جسد الانسان ترى كل جزء يعمل لمصلحة الكل ويخدمه خدمة محبة خالصة من الاستئثار الفردي ولا يقصّر في عمله. ولا يشوش نظامَ الكل الاّ تدخّلُ العقل الواعي لازاغة العمل عن النظام .

قابل بين معهد كدار المعلمين وقفير النحل مثلًا او بين كلية الهندسة وقرية النمل ترَ في المقابلة ما يُخجل العقل الواعي في فترات صفائه . فكأنّ الحشرة التي لا تزال على الفطرة الغريزية تفوق الانسان في امتثالها للنظام ، وكأنّ الانسان الذي تفتحت فيه قوى نفسية عقلية من مرتبة اعلى من العقل الغريزي قد انحطّ عوضاً عن ان يسمو. او قابل بين الحيوان الذي اذا وقع مرة في شرك او فخ ونجا منه لا يعود يقرب منه كل حياته وبين الانسان الذي يقع في عين الشرك مرة بعد مرة . فهل يا ترى العقل الواعي ادنى مرتبة من العقل الغريزي الباطن ؟ وهل الانسان بتفتح قواه العقلية المفكرة يصبح اثقل فهماً وأكثر غباوة من الحيوان الذي لا يزال على فطرة الغريزة ؟ ليس وقوع الانسان في عين الشرك مرة بعد مرة من غباوته ولكن من فرط ذكائه . فهو حين يُلدغ من جحر توهّم فيه لذة يصوّر له ذكاؤه أنه فاته أن يتخذ الاحتياط اللازم للوقاية من

اللدغة فيقدم المرة الثانية محتاطاً. ولكن يتبين له وجوب اتخاذ احتياط آخر ايضاً . وهكذا قد يستنفد عمره ولا يستوعب الاحتياطات التي تؤمّن له اللذة وتقيه من اللدغة . ولكن لا بدّ ان يحلّ عليه يوماً الفهمُ الاعلى فيفهم معنى القول: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين» ولا يؤمن حتى يفهم ان جوّ الشهوات يتكوّن فيه سراب يضلل العقل والفهم. وما الألم المقترن مع اللذة التي يسخّر الانسان عقله الواعي لأجلها سوى مظهر آخر من مظاهر النظام في الحياة الذي لا يني ابداً عن تذكير الانسان بانّ نظام الحياة لا يُعبث به .

إنّ تفتّح القوى العقلية المفكرة المقترنة مع الوعي النفسي في الانسان قد جعله وجهاً لوجه أمام قوى كونية من مرتبة اعلى مما يدركه عقل الانسان البدائي، وجعلت في قبضته ادارة تلك القوى وتوجيهها إمّا الى التعمير او الى التخريب على مقياس لم تحلم به او تتصوره الاجيال الغابرة . وما تمخّض الانسان في آلام الثورات والحروب سوى تذكير للانسان بانه قد هجر نفسه وتلهّى بتلك القوى وبتسخيرها الى تضخيم شهواته وملذاته . فهو سيعود حتماً الى نفسه ليزيد معرفته بها وفهمه اياها وعلاقتها بالقوى الكونية ، وسيدرك ان نشوة الفهم والمعرفة تسمو على كل لذة حسية . وسيفهم كيف يوجّه نفسه والقوى

التي تسلّط عليها توجيهاً ملائماً لصفاء عيشه ومتوافقاً مع اتجاه موكب الحياة نحو مصدرها. وسيفهم مَن تُعميهم ظواهر الحياة عن بواطنها ان ما يظهر في الحياة مخالفاً لنظامها الشامل هو كالتيارات السطحية الموضعية والتموجات على وجه ماء النهر التي قد تعمي الناظر عن مجرى النهر بكليته الى البحر.

كل انتقال من حالة الى حالة يلازمه تقلقل واختلال في التوازن يظهر فيه شبه فوضى. وما التناقض الذي يظهر في حياة الانسان في بداية المرحلة التي ولجها سوى هذا المظهر. ولا يعجّل انتهاء آلام المخاض سوى رجوع الانسان الى نفسه وفهمه اياها.

لا ننسَ انّ ما يعرض على الشعوب من الاختبارات تعرض خلاصته عليك وعليّ بصورة فرديّة. وما أقوله عن رجوع الانسان الى نفسه ليس اقتراحاً لحكومة او لمؤتمر دولي لأجل تنفيذه، ولكنه اقتراح أعرضه على كل واحد بمفرده كما عرضته على نفسي لتطبيقه تطبيقاً مباشراً. ولعلّ ضآلة فعالية معاهد التعليم والتربية في إحداث التغيير المطلوب في نفوسنا هي نتيجة ازاحة هذا الواجب عن انفسنا الفردية والقائه على شخصية وهمية كالوزارة او الدولة أو عصبة الأمم ومطالبة تلك الشخصيات الاجماعية باصلاح أمور في حياة الشعب علينا نحن أن نصلحها

في نفوسنا الفردية . فكثير من التعليم المدرسي مقتصر على الوصف الكلامي لا يتجاوزه الى التطبيق والتدريب النفسي العملي.

اذن كانت الغاية من التعليم والتربية والتهذيب معرفة النفس. « قبل كل معرفة اعرف نفسك » وما بسطته في هذا الفصل ليس الاّ مفاتيح معرفة النفس . ورب قائل يقول : وهل معرفة النفس تطعمنا خبزاً وتؤمّن لنا ولعيالنا الكساء والمأوى؟ ولا أستغرب سؤالاً مثل هذا من شخصٍ قصد معهد التعليم لأجل الشهادة ، لأن بالشهادة الوظيفة ، وبالوظيفة الراتب ، وبالراتب التّمتّع . . .

ان معرفة النفس لا تحصل بمجرد الدرس على النحو المتّبع في تطبيق المناهج المدرسية ولا بالتأمّل الصّرف ، ولكن بالعمل أيضاً – بالقيام بالأعمال التي تقتضيها الحياة . وبالعمل يصلنا رزقنا . من كانت غايته من العمل الربح والثروة عرّض نفسه للخسارة. ومن كانت غايته السلطة والوجاهة عرّض نفسه للخيبة . ومن كانت غايته لذة التمتع كان هدفاً للألم . ولكن من كانت غايته من العمل المعرفة أعالماً كان في بحثه عن قوى الكون أم معلماً في احدى المدارس أم مهندساً في الأشغال أم زارعاً أم صانعاً يتقن صنعته فطلب المعرفة في عمله يهديه الى العمل المثمر الذي يأتيه منه رزقه من دون طوى أو غصّة . ويكون له

في عمله نشوة خالصة من الهموم والمخاوف .

والعمل الذي غايته المعرفة تتخلله فترات تأمُّل تتوجّه فيها القوى العقلية نحو النفس ثم تعود منها الى العمل . وذلك تبعاً لتدريب معيّن على أصول صحيحة معروفة عند أربابها . ان خطأ توجيه التفكير هو الذي يستعبد الانسان للدنيا . ولا يحرره من العبودية الاّ التوجيه الفكري المبني على المعرفة الصحيحة . واذا أردت الاثبات بالبرهان فاسعَ وراء معرفة نفسك ، واذا اتّبعت الطريقة السويّة الى مرحلة معيّنة اقتنعت اقتناعاً راسخاً لا يخامره شكّ .

العلم والتنظيم الاجتماعي

من علّم النمل والنحل نظام حياته الاجتماعية ؟ ومن اين جاءت الفوضى الى مجتمع الانسان حتى صار همّه الشاغل التشريع لأجل التنظيم الاجتماعي ؟ وهل نشأ الانسان في الفوضى وهو يتدرج الآن في سلّم الارتقاء الى النظام ، ام نشأ على النظام ثم تدهور وانحطّ وهو الآن يحاول الرجوع الى الحالة اللائقة به عن طريق التنظيم واحلال النظام محل الفوضى في حياة الفرد والمجتمع ؟ وهل أساس الكون هو النظام ام الفوضى ؟ ام حقيقة الكون ثنائية فهو يتراوح في مد وجزر بين النظام والفوضى كما بين الخير والشر ؟

ان محاولة الانسان تنظيم حياته الفردية والاجتماعية لا تستقيم ولا تؤدي الى نتيجة مثلى حتى تكون مؤسسة على فهم النظام ومقامه في الكون . ولن تصطلح حال الانسان في دنياه حتى يكون تصرفه وسلوكه على منهاج متوافق تمام التوافق مع نظام الكون والحياة الشامل . ويجب ان يكون التوافق عن وعي وفهم فيكون الانسان في تصرفه مطاوعاً للنظام مطاوعة عن

رضى وارادة خاضعة للارادة الكلية التي تظهر ذاتها في النظام الكوني الشامل .

ان الكون مؤسس على النظام من أقاصيه الى أقاصيه على امتداد المكان والزمان ومن اصغر ذرة الى اعظم جِرم . وهو نظام يظهر على مراتب متدرجة من الجماد الى النبات والحيوان فإلى العقل ونفس الانسان . وما خواص المادة وطبيعة النبات وغريزة الحيوان سوى وجوه ومراتب من النظام الشامل . أمّا الفوضى في حياة الانسان فهي حالة طارئة عليه في مرحلة انتقاله من النظام على مرتبة الغريزة الحيوانية الى النظام على مرتبة الوعي العقلي ، فهو في هذه المرحلة يحاول الخروج على النظام بزَيْغ شهواته ولكن النظام يصدمه ويردّه . وما المرض والألم والخيبة والتشويش والفوضى سوى صدمة النظام لشهوات الانسان الزائغة عن سنّة الحياة السويّة .

ان الوجهة البارزة لنا من النظام الكوني الشامل وهي ميزان نظام الأحياء على الأرض هي الدورات الفلكية . وأقربها الينا واعظمها اثراً في كل الأحياء على الأرض هي دورة الأرض اليومية الظاهرة في تناوب الليل والنهار ، ودورتها السنوية الظاهرة في دورة الشمس في الأبراج الفلكية وفي تناوب الفصول على الأرض . ونحن نرى ان الأحياء على الأرض تبلغ غايتها

المثلى حين تتوافق دورة حياتها مع الدورة الفلكية توافقاً تامّاً .
انظر الى النبات كيف يستفيق من هجوعه الشتويّ في الربيع حين يفيض في عروقه عصير الحياة فتتفتح ازهاره واوراقه ثم يثمر في الصيف وينثر ثمره وورقه في الخريف ثم يعود الى هجوع الشتاء . وانظر الى الحبة التي تتفتح قبل الأوان المناسب لها كيف تقزّم نموّها نفحاتُ البرد عليها وهي في طراوة ونعومة فتوّتها . او الحبة التي تتأخر في هجوعها فتثمر متأخرة عن حرارة الصيف اللازمة لبلوغها فتنكمش ثمرتها قبل ان تنضج .

ثم انظر الى الحيوان الذي لا يزال على غريزته ابعد من غيره عن تفتح العقل الواعي كالنمل والنحل الذي يضرب فيه المثل في جودة تنظيم حياته الاجتماعية . يستفيق من هجوع الشتاء فيماشي النبات في متابعة الدورة الفلكية فيجني وينسل ثم يجمع مؤونة الشتاء ويعود الى الهجوع لدى اكتمال دورته السنوية .

والطير في الربيع يتفتح في قلبها حنين الى ارض غير مشتاها فتنتظم في اسراب وتطير مسافات شاسعة فوق البحار والصحاري الى مصيفها . وهناك تتفتح في قلبها المحبة الجنسية فتتزاوج وتبني عشوشها ويتعاون الذكر مع الانثى على تغذية الفراخ وتعليمها الطيران والتفتيش عن الغذاء . وبعد اكتمال تدريب

صغارها ترتاح فترة ثم يدبّ في عروقها شوق العودة الى مشتاها فتجتمع وتنتظم اسراباً وتعود ادراجها لتكمل دورتها السنوية وهي في حياة الطير متوافقة توافقاً عجيباً مع الدورة الفلكية . ويضرب المثل في مطاوعة الطير للدورة اليوميـــة في تناوب الليل والنهار .

ونترك للقارىء ان يتدرج بخياله في مراتب ارتقاء الأحيـاء من الطير الى الانسان وان يتأمل في الأسرار التي تكتنف كل درجة من درجات الأحياء. وأعظم الأسرار على سلك بحثنا هذا هو سرّ ارتداد الانسان عن توفيق دورة حياتـه مع دورة النظام الشامـل فيجني على نفسه ألم الفوضى والتشويش . فهو يعاكس الدورة اليومية بجعل ليله نهاراً مصطنعاً فيثير اعصابـه وعواطفه اثارة مصطنعة في غير أوانها عوضاً عن ان يجدد قواه الحيوية بالهجوع . ويطيـل ليله حتى الضحى متثاقلاً عوضاً عن ان ينهض الى العمل مع الشمس . وليس من بني الانسان مَن يماشي الدورة السنوية مماشاة مطاوعة متوافقة غير الفلاح الذي لم تفسده ملذات المدنية والحضارة . يهبّ الى عمله في الربيع حين تدب الحياة في النبات والحيوان ويصل الى اوج عمله في الصيف ثم يجمع مؤونته في الخريف ويعود الى هجوع الشتاء . فيجـد في عمله نشاطاً وصحة ، وفي اكله البسيط غذاء ولذة لا يعرفها

اصحاب المطابخ المدنية ، وفي غلة بيدره بركة يغتبط بها ويشكر الله عليها مهما كانت كميتها . وهو اغتباط لا يعرفه اصحاب الربا الذين ينغّص ربحَهم الخوفُ من الخسارة . وليس كل الفلاحين على هذه الحالة المثلى ولا كل سكان المدينة قد افسدتهم ملذاتها . ولكن معظم بني الانسان يعاكسون منهج العمر في تفكيرهم وشعورهم باثارة حمّى الشباب في قلوبهم حين تدركهم الكهولة والشيخوخة فيرجع بهم حنين القلب الى ما قد انقضى عهده ولن يعود عوضاً عن ان يوجهوا أفكارهم الى الاغتباط بالتأمل في معنى الحياة وفهمها حين يقارب اختبارهم الاكتمال .

ثم نلاحظ في كل مجتمع انساني بدائي خرج عن الغريزة ولم ينضج فيه التفكير الواعي نفوراً من كل نظام وميلًا الى مخالفة كل قانون أصالحاً كان ام فاسداً . فلا يطيعونه إلاّ مقسورين خوفاً من العقوبة . وحيث لا عقوبة قانونية فهم يتزاحمون ويتدافعون ويتقاتلون على اختطاف خيرات الأرض كل لنفسه لا يضع حدّاً لحاجته ولا يكترث لحاجة جاره . لاحظ كيف يتزاحم ويتدافع ابناء اقطارنا العربية أمام ابواب المصالح الحكومية أو على نوافذ بيع التذاكر او على استقاء الماء من العيون الشحيحة . ونحن نلاحظ ان الشعوب والجماعات التي تأثرت بالاتجاه العلمي الحديث قد تأثرت أفرادها باحترام

القانون والنظام . فهم يصطفّون بانتظام أمام ابواب المصالح العامة كل ينتظر دوره ، ويقبلون على اداء واجباتهم الاجتماعية غير مسوقين آخر ساعة الى ذلك من قبل الشرطة ، ويوزعون مياه الريّ بمقاييس الكيل والزمن بالتناسب مع مساحة الأراضي . وتصرّف دوائرُ مصالحهم العامة اشغالَ الشعب وتوصل لكل فرد جواب عريضته بالبريد الى بيته من دون ان يحتاج الشعب الى ملاحقتها من كاتب الى كاتب حيث ترسب في سلة المهملات ان لم ينبّه ويستعطف الكاتب او رئيس الدائرة الى اجراء اللازم بشأنها .

ولا مجال في هذا المقام لتحليل الكيفية التي اثّر بها الاتجاه العلمي على عقلية الشعب في تصريف امورهم العامة . ولكنهم قد ادركوا ان اتّباع القانون يؤدي الى انتظام حياتهم ومخالفته تؤدي الى الفوضى . وقد ادركوا ايضاً ان القوانين الاجتماعية الموضوعة يجب ان تتوافق مع القوانين الطبيعية ، اي مع نظام الطبيعة والحياة ، حتى يوصِل تطبيقها وتنفيذها الى الغاية المنشودة في انتظام احوال المجتمع .

ان للمعرفة العلمية مجالها وللاتجاه العلمي حدّه الذي لا ينفذ بعده الى ما يصطلح به حال الانسان . وقد أشرنا في غير هذا الفصل الى المدى الذي وصل اليه الاتجاه العلمي في تنظيم المشاريع

العمرانية التي تستهدف تغيير وجه الأرض واستخراج خيراتها لحاجات الانسان . وقد بلغ الاتجاه العلمي مدى بعيداً ايضاً في التشريع الاجتماعي لحفظ الصحة العامة ومنع انتشار الأمراض والأوبئة . ولكن العلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية والأحوال الاقتصادية لا تزال في اضطراب وتشويش وتعقيد يشعر كل منا بشدة وطأته . فالمنازعات بين طبقات الشعب الواحد وبين الشعوب المختلفة والأزمات الاقتصادية والتعقيدات المالية والتجارية التي تعانيها كل الشعوب ما زالت كالثوب الذي يرفأ من جهة فينشق من الجهة الثانية . وذلك رغم توجيه الجهود المجهزة بمشورة المستشارين المتخصصين كل في علمه . ولكن لن ينير سبيل الانسان في مسالكه المظلمة التي يتخبط فيها غير ضياء المعرفة العليا وهي معرفة النظام في مرتبة اعلى من المرتبة التي يدركها العقل المفكر بالمعرفة العلمية . هو نظام المحبة الذي يدركه الانسان بتفتح قوى العقل النيّر الذي ينير فهمه فيرى وحدة النفس الفردية مع كل النفوس الفردية في النفس الانسانية الكلية . ويدرك انه اذا استعبد جاره فهو قد استعبد نفسه . واذا جاع جاره فنفسه ايضاً جائعة ضامرة . حينئذ تتمم معرفته العليا معرفتَه العلمية في سنّ الشرائع والقوانين المتوافقة مع النظام السرمدي الشامل في جميع مراتبه لهداية من لا يزالون في حاجة

الى الهداية نحو النظام على مرتبة فوق الغريزة الحيوانية . وهي مرتبة الانسانية الكاملة حيث تبطل الحاجة الى السلطات التشريعية والتنفيذية لأن الفرد يصبح مطاوعاً للنظام عن وعي وفهم وعن ارادة خاضعة للارادة الكلية الشاملة التي هي مصدر النظام .

لا تقل تلك حالة مثالية لن نصل اليها . فهي الغاية التي سيصل اليها كل انسان قبل جلاء الانسانية عن وجه هذه الأرض . وخير البرّ ان نتجه عاجلاً بافكارنا وقلوبنا نحوها ، افراداً وجماعات . ان مجرّد الاتجاه وعقد النية يصعدنا درجة عظيمة في السعادة والاغتباط بالحياة .

غاية التعليم والتربية

تنتاب الشعوب فترات غير اعتيادية تضطرهم الى الخروج عمّا الفوه في حياتهم كما يحدث في الازمات الاقتصادية والحروب والثورات الاجتماعية والنهضات الفكرية القومية . فيهبّ مفكّرو الشعب يتفحصون التقاليد التي درج عليها الشعب وما كان من امره اثناء الازمة ، ويحللون الاسباب التي ادّت الى اضطراب او فوران الحياة، ويفتشون عن عوامل الضعف والفساد ومقوّمات الحياة في جميع نواحيها ، ويصفون العلاجات لاصلاح ما فسد ولتنمية وتقوية ما صلح . ومن جملة الامور الاساسية التي تستوجب الاهتمام والتجديد هو التعليم العام . ها هي حكومات اوروبا تعيد النظر في مناهج التعليم كما فعلت بعد الحرب العالمية الاولى . ومثلها حكومات الاقطار العربية . فهي منذ تعللت بالاستقلال السياسي تنظر نظرة خاصة الى منهج التعليم العام لانها ترى فيه اداة فعّالة لتقوية الروح القومية الاستقلالية وتوطيدها في الشعب . وليس امر احرّ على قلوب الآباء والامهات في هذا الجيل من امر تعليم بنيهم وبناتهم لانهم اصبحوا يرون ان تعليمهم

ضروري وقد اصبحت كلفة التعليم فوق طاقة السواد الاعظم منهم .

وفي كل مرة يهبّ المصلحون لاصلاح المنهج يعيدون على انفسهم السؤال التالي : وما هي الغاية التي ننشدها من التعليم والتربية ، وايّ المناهج يؤدّي اليها ؟ فكأنهم لم يهتدوا بعد الى معرفة الغاية المثلى من التعليم والتربية او انهم يرون انّ الغاية تختلف باختلاف الافراد والشعوب وتتغيّر بتغيّر الازمان والظروف . او يتبيّن لهم ان المنهج المتبع لا يتوافق مع الغاية . نعم ، تختلف وتتغيّر الغايات المنشودة من التعليم والتربية تبعاً لاختلاف الناس في الغايات التي ينشدونها في حياتهم ولتغيّر آرائهم بتغيّر الازمان . ولكن الغاية التي تتوافق مع غاية الحياة الشاملة هي واحدة لا تتغيّر بتغيّر الازمان ولا تختلف باختلاف الافراد والشعوب . واليها يجب ان توجّه مناهج التعليم والتربية في كل الاقطار .

ان الغاية التي ينشدها من العلم والتعلّم السواد الاعظم من الناس هي نيل شهادة تجيز الفرد الى شغل وظيفة او ممارسة مهنة يكون فيها العمل اقلّ تعباً والمكافأة اعظم مقداراً والوجاهة اكبر قدراً مما هي في الاعمال التي تتعاطاها عامة الناس . ويخالط ذلك شيء من حب الظهور والتزين بالادب والثقافة . على انّ الرغبة في الربح والوجاهة مرجّحة ترجيحاً مبالغاً فيه على حب

العلم الخالص . انّ علم هؤلاء الطلاب لا يزيدهم معرفة بناموس الحياة فيقضون العمر محاولين ان يأخذوا من الحياة اكثر مما يعطون . ولو تمكنوا من ان يحصوا ويزنوا كل ما يصيبهم من الهموم والمتاعب والآلام التي تلازم طلب الربا وحب التمتع لوجدوا ان كفتي ميزانهم ابداً متوازنتان متعادلتان . وما ينطبق على الأفراد ينطبق على الشعوب ايضاً بصورة اجمالية ، لا فرق بين كبير وصغير في نظر العالم .

كل ما يطلبه الانسان بقلبه لا بشفتيه يحصل عليه — عاجلاً ام آجلاً — لا خالصاً صافياً ولكن مقروناً بتوابعه الملازمة له . وكل شهوة زائغة عن هدف الانسانية وغايتها وعن ناموس الحياة تقترن لذتها مع الم يعادلها . ان معاهد التعليم لا تعطي الشعب اكثر ولا اقلّ مما يطلب الشعب بحرارة قلبه . والفرد الذي يأبى ان ينجرف مع التيار تدبّر له القدرة التي تدبّر الحياة الشاملة تدبيراً خاصّاً وتلهمه الى النتيجة التي يستحقّها . ومن تفتحت بصيرته ليرى مسالك الحياة الخافية عن الابصار يرى ان ما يصيب ذاك الفرد ليس حظّاً ولا صدفة جاءت من دون سبب . ان يكن السبب الاصليّ المؤدّي الى فساد التعليم ناشئاً عن عموم الشعب الذي يريد ان يظهر بمظهر العلم وان يتخذ العلم مطيّة للتسلط والغنيمة فالخاصّة الموكولة اليها سياسة التعليم

والتربية يمكنها ان تنوّر الشعب وترشده الى فهم الغاية الصالحة من التعليم غير ما يبغيه الشعب . وان هي قصّرت في ذلك كانت مسؤوليتها تجاه هذا الامر وتحمّل تبعته السيّئة اعظم مما يصيب افراد عامة الشعب ، التي ما زالت منذ القدم حتى اليوم تجعل فرداً واحداً او عصابة منها « كبش المحرقة » فتحمله جميع خطاياها وآثامها .

ولكن المعلمين واساتذة التعليم والتربية يردّدون منذ القدم وخريجو دور المعلمين في كل جيل يتلقنون ان الغاية التي يجب ان توجّه اليها مناهج التعليم والتربية هي غير الغاية المادية الدنيوية التي يبغيها السواد الاعظم من طالبي العلم . ونخصص في هذا الحديث منهج التعليم العام المؤدّي الى شهادة البكالوريا او ما يعادلها ، فهو ما يقتصر على الاطلاع المجرّد على مبادىء العلوم والفنون والادب والفلسفة من دون تخصّص في علم مجرّد او في صنعة او مهنة . وهذا المنهج الدراسي اصبح يعتبر شرطاً اساسياً لكل دراسة عالية وشرطاً يكاد يكون عامّاً لطالبي الوظائف فوق درجة معينة . فمن قادة التعليم والتربية من يقول بأنّ الغاية من التعليم العام يجب ان تكون انماء القوى العقلية والخلقية في الطالب وتدريبه على التفكير الصحيح وتزويده ببعض المعلومات العامة الهامّة عمّا فكّر وعمل به الانسان .

ونصّ المناهج الشائعة في هذا العصر يجاري هذه الفكرة لكن روح المناهج مشبعة بوجهة النظر العلمية العلمانية . ومنهم من يتابع افلاطون وارسطو بأن يجعل الغاية اعداد الفرد لخدمة الدولة . وكان تعليم سقراط موجّهاً الى معرفة النفس وحياة الفضيلة . وكاد التعليم في الاجيال الوسطى يكون دينيّاً صرفاً غايته واحدة مع المفهوم من غاية الدين . وكانت وجهته البارزة طلب العلم لوجه الله واعداد النفس لحياة الآخرة . وقد نشأت على اثر انتشار العلم الحديث وازدهاره وجهات نظر جديدة اهمّها كان ردّ فعل ضدّ فكرة اعداد النفس لحياة الآخرة فصارت الفكرة اعداد الفرد لهذه الحياة الدنيا بتدريبه على تكييف نفسه لملاءمة البيئة وتكييف البيئة على قدر الامكان بواسطة المعرفة العلمية لملاءمة حاجة الانسان . ومعنى ذلك ان الغاية الاساسية هي تديب الفرد على تحصيل معاشه من الطبيعة والمحافظة على نفسه من عواملها المهلكة . ومن حيث ان الفرد يعيش ويعمل بالتعاون مع غيره فقد جعلت فكرة التعاون الاجتماعي وخدمة المجتمع والواجبات الاجتماعية عاملاً اساسياً في التربية اشرك مع المسعى الاساسي الاوّل في التكييف المتبادل بين الفرد وبيئته للمحافظة على كيانه الجسدي . هذه هي وجهة النظر العلمية العلمانية الصّرفة .

ونحن نرى في ما عدّدناه لا غايات مختلفة بل وجوهاً متتامّة متكاملة لغاية واحدة . والخطأ الذي يحدث التشويش في التربية هو اعتبار كل وجه كأنه مستقل عن بقية الوجوه والسعي لتضخيم الواحد واهمال الآخر الى درجة الخروج عن التناسب السويّ فتمسي التربية تشويهاً في التفكير والاخلاق . ان انفصال الرياضة البدنية واستقلالها عن الرياضة العقلية يؤدي الى تضخّم في العضلات وتشتّت في الفكر . ويؤدي انفصال التربية الاجتماعية الوطنية القومية عن التربية الفردية الى التناقض في التفكير والتشوّه في الاخلاق . كثيراً ما نسمع القول باننا كأفراد لا نقلّ عن افراد بقية الشعوب ولكننا كشعب تنقصنا التربية الاجتماعية التي لغيرنا من الشعوب . وهذا القول خطأ اذ النقص في المظاهر الشعبية تابع للنقص في التربية الفردية . وكم تثير في قلوبنا الحماسةَ والاعجابَ مشاهدُ الطلاب في المواكب تتقدّمها الاعلام والطبول والزمور . وكم أعجبنا باندفاع الطلاب الى المظاهرات السياسية الوطنية في مثل تلك المواكب . ولكن قلّ منّا من يشاهد هؤلاء الطلاب انفسهم على حقيقة حالهم في محيطهم المدرسي حيث معظمهم مشتتو الأفكار يقصّرون عن متابعة الابحاث العقلية المجرّدة فيلجأون الى الكذب والغش والسرقة واذا لزم الامر فالى التمرّد على معلميهم لكي يحصلوا على

درجة النجاح . واذ الحقّ الذي كانوا ينادون به في مواكبهم يصبح عندهم عقيدة سقيمة لا تتوافق مع واقعيات الحياة . وكذلك التفريق بين النظريّ والعملي في التعليم والتربية وترجيح الواحد على الآخر كأنهما مستقلان يؤدي الى تلقين ببغائي من جهة والى عمل بلا نتيجة مفيدة من الجهة الثانية .

الغاية الواحدة التي يجب ان يوجّه اليها كل تدريب ورياضة في التعليم والتربية هي ان يعرف الفرد نفسه ويفهم المعنى والغاية من حياته . واوّل خطوة في التعلّم على مستوى الطبقة الانسانية هي اليقظة الى الوعي النفسي والشعور الواثق بأنّ نفس الانسان هي الحقيقة الاساسية التي تسند اليها المعرفة . وانها ابدية ازلية ، وهي في جوهرها مقدسة ، لان مصدرها هو مصدر الكون ومرجعها هو عين مصدرها المقدس . وصفات مصدرها كامنة فيها تتفتح بتفتح المعرفة اثناء دورتها بين المصدر والمرجع . ففي التعليم والتربية الصحيحين يتوازى تقدم الفرد في المعرفة عن الكون مع تقدمه في معرفة نفسه وارتقاء صفاته بالتدرج من الحيوانية الى الانسانية فالالوهية .

ويكون تواصل الوعي النفسيّ بالتأمل المجرّد عن الحس والموجّه الى باطن النفس . حين يصل الفرد الى الدرجة الكافية من الوثوق بحقيقة النفس يستقرّ شعور الوثوق هذا في العقل الباطن فيتوجّه العقل الواعي الى معرفة الكون والحياة . وكل

درجة ارتقاء في الوعي النفسي يرافقها تفتّح في القوى العقلية على مستوى جديد، تتبيّن بها العلاقات التي ترتبط بها الاشياء بعضها ببعض والنفس الفردية بالكون والحياة. واذ يتراءى للعقل ان بين النفس الفردية والكون صلة وارتباطاً تتسع آفاق النفس والعقل فيرى حدود النفس الحقيقية اوسع من حدود النفس الفردية كما كان توهمها جهلاً. ثم يرى الحدود تبدأ بالاضمحلال مع الاتساع الى ان يرى النفس في الكون والكون في النفس لا حدود ولا فواصل. واذ النفوس الفردية كلها واحد في النفس الكلية الشاملة. باتساع معرفة النفس تشحذ القوى العقلية فتتسع المعرفة بالكون. وباتساع المعرفة بالكون تتسع معرفة النفس. وهكذا بالتأثير المتبادل المتواصل تتسع آفاق النفس حتى تشمل الكون وتتقارب آفاق الكون حتى تحويها النفس. تلك هي درجة المعرفة الكاملة. وان تقولوا اين نحن من تلك الدرجة حتى نفكر بها فتذكّروا اننا على الطريق المؤدّي اليها، وان كل فكر او شهوة وسعي يزيغنا عن الطريق يزيد في شدة آلامنا وطول مدّتها، وان النيّة الصافية في مسامتة الطريق تبعث في النفس شعور سلام واطمئنان واغتباط لا توازيه لذة.

ان التعليم والتربية الموجهين الى هذه الغاية يستوجبان في تنفيذ منهجهما تنبيه الطالب تنبيهاً متواصلاً بالتدريب المناسب

الى الامور الآتية :

(١) انّ بين نفس الطالب وما يدرسه ، أحجَراً كان ام نباتاً ام حيواناً ام انساناً ، صلة عليه هو ان يتوصل يوماً من الايام الى ادراكها . فالمعرفة العلمية يجب ان تكون موجهة الى فهم معناها في حياة الانسان علاوة على حاجة الانسان اليها في الحصول على حاجاته الجسدية من بيئته المادية . وهذا التوجيه مبتور في التعليم العلمي العلماني الشائع في هذا العصر .

(٢) ان طلب المعرفة عن الكون بواسطة الاختبار الحسي يقتضي ان يكون الطالب مرهف الحس مركز الانتباه سريع الملاحظة بحيث يعي ما حوله ولا يعمى عنه . وهذا يستوجب رياضة بدنية ، عقلية ، روحية خاصة تشحذ الحواس وتضبط الشهوات وتعتق العقل من حيّز القوة الكامنة الى حيّز الفعل.

(٣) ان اندفاع العقل نحو الكون للتعرف اليه يجب ان يتناوب مع فترات من التأمل الباطن الذي يزيد الوعي النفسي الى الدرجة اللازمة للارتقاء الى مستوى جديد من المعرفة العلمية.

(٤) ان اتساع آفاق النفس هو الخطوة الاولى في الاختبار الديني المؤدّي الى ادراك وحدة الكون والحياة في الله تعالى الذي هو المصدر والمرجع. وان ادراك وحدة النفوس الفردية في النفس الانسانية الكلية هو درجة المعرفة التي تشرف على فهم

السبب الموجب على الفرد محبة الغير وخدمة الانسانية. وان تعاليم التربية القومية هي محاولة ترسيخ الحدود والحواجز التي تضمحل وتتلاشى بادراك المعرفة العليا، وهي تعاليم مناقضة لتعليم الحياة الصالحة. من يتعلم الصدق والحق ومحبة القريب يحبّ قومه ويخدم وطنه خدمة صادقة. ومن لم تتسع حدود نفسه الفردية بالمعرفة الصحيحة لن يفهم من القومية والوطن غير التطبيل والتزمير والتعصب والعداوة وشهوة اقتسام الغنائم.

(٥) ان العمل الذي بواسطته يحصّل الفرد رزقه هو عمل لازم لفهم معنى الحياة. وغايته الصحيحة هي المعرفة. اما الرزق فهو نتيجة ملازمة للعمل ومكفولة. فمن جعل الفهم غايته من عمله كان له فيه لذة تفوق لذة الربح وعاش قانعاً راضياً. ومن جَعَلَ غاية عمله الربح غير واثق ان رزقه مكفول من لدن مدبّر الكون والحياة عرّض نفسه للخسارة وكان عمله محفوفاً بالمخاوف والقلق. «فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس ... اطلبوا اوّلاً ملكوت الله وبرّه وهذه كلها تزاد لكم.» وان كنتم ممن يفضلون القرآن والحديث على الانجيل فاليكم الحديث: «من تفقّه في دين الله تعالى كفاه الله ما همّه ورَزقه من حيث لا يحتسب.» والقول الذي تردده كل الالسن وتشكّ فيه اكثرية القلوب الضعيفة الايمان هو «الرزق على الله»

(٦) ان السواد الاعظم من الناس، اميّين ومتعلمين ايضاً، يظنون ان ابحاث الفلاسفة وتأملات المعلمين الروحانيين هي لعالم غير هذا العالم جاهلين ان القصد منها هو ان يطبقها الناس في حياتهم او ان يطبقوا حياتهم عليها لكي يتخلصوا من التشويش والهم والقلق الذي يساورهم مدى العمر .

(٧) المدرسة الحديثة هي شبه مارستان معزول عن العالم يزعمون انها تعدّ النشء للحياة والعالم خارج جدرانها. اما المدرسة المثلى فلا تفصلها جدران عن العالم ولا يعزلها عن الحياة استعداد للحياة .

مناهج التعليم ونتائجها

ان مناهج التعليم العام في عصرنا هذا لا يزال فيها شطر كبير موروث عن المناهج الاغريقية كما كانت في ايام افلاطون وارسطو. والشطر الآخر هو العلم الحديث. ومنهج التعليم العام يكاد يكون واحداً في جميع الاقطار الغربية والشرقية التي اقتبست العلم الحديث والحضارة المبنية عليه. والفرق بين قطر وقطر او بين مدرسة ومدرسة معظمه فرق في تطبيق المنهج وتنفيذه بصورة عامة او في تضخيم او اضعاف احد فروعه بصورة خاصة اكثر مما هو فرق في اختلاف مواضيع الدراسة. والاقطار العربية قد اقتبست المنهج الغربي بحذافيره. على انه يسمع من آن الى آخر كلام عن تكييفه لكي يكون اكثر ملاءمة لحاجتنا الخاصة وعن توحيد المناهج وتوحيد الثقافة. نحن نرى ان التوحيد المزعوم في المناهج والثقافة ما هو الاّ زبد التشويش الظاهر في الاختلافات السياسية والنعرات القومية. وحاجتنا هي الى تطبيق روح المنهج لا الى رصف انشائيّ لمنهج جديد يظل حبراً على ورق. ولا ننكر ان في منهجنا المقتبس مواضيع واساليب

يجب تعديل بعضها وحذف البعض الآخر كما يجب الحذف والتعديل في مناهج الاقطار التي اقتبسنا عنها .

كان التعليم العام منذ ايام الاغريق عامّاً من جهة المنهج وتفرّع مواضيع الدراسة والتدريب اذ لم يكن فيه اختصاص بموضوع واحد مثل الاختصاص الذي نعرفه اليوم . ولكنه لم يكن عامّاً من جهة انتشاره وسيطرة الدولة عليه على نحو ما هو شائع في هذا العصر بدرجات متفاوتة في اقطار العالم . فقد كان التعليم شبه امتياز لطبقة الحكام والاغنياء . وكانت اركان المنهج القراءة والكتابة ومبادىء الادب والرياضة البدنية والموسيقى للاولاد ، وكان يزاد على ذلك للبالغين شيء من العلوم العقلية الرياضية والفلسفية والسياسية . اما الفلاسفة وتلامذتهم فكانت لهم حلقات خاصة تماثل الدوائر الجامعية العالية في هذا العصر في مقامها لا في تنوّع ابحاثها . وكان النظر الى الاعمال اليدوية والصناعية انه لا يليق بمقام الطبقة المتعلمة فهو من مشاغل الطبقة العامة والارقّاء. وكانت هذه النظرة الى التدريب العملي لا عند الطبقة المترفعة عن العمل فقط بل عند بعض الفلاسفة كذلك كأفلاطون وارسطو . وما زالت هذه الروح معششة في مدارس التعليم العام في هذا العصر رغم انتشار التعليم تحت اشراف الدولة حتى يشمل اكثر فاكثر من الطبقة العاملة ،

ورغم ادخال الاعمال اليدوية والعلم الحديث مع الاختبار العملي على منهج الدراسة . فالدروس هذه وان يكن المقصود منها التدريب بالاختبار العملي لكنها تلقى في كثير من المدارس لا بروح حبّ العمل ولكن بروح التظاهر والمباهاة بثقافة موهومة انها علمية عملية . وتختلف المدارس من هذه الوجهة باختلاف الشعوب والجماعات وتفاوتها في درجة حبّها الحقيقي للعمل . فالجماعات التي لها ميل قويّ للعمل واقدام عليه توجّه الدروس العملية في مدارسها الى النتائج المفيدة ، والجماعات التي على النقيض الآخر تكون دروسها عملية في الظاهر وتلقيناً ببغائياً في الواقع مع انه يكون للجميع منهج واحد للتعليم العام .

ومن نتائج المدارس المعششة فيها روح الترفع عن العمل نقدم الامثلة الآتية : شاب يعود من مدرسته لقضاء العطلة الصيفية بين اهله وذويه في القرية ويترفع عن ان يساعدهم في اعمالهم في الحقل والكرم التي بواسطتها يحصلون رزقهم واجور تعليمه ايضاً، ويتكبّر عن ان يخدم نفسه في البيت . وكثيرون من امثال هذا الشاب يهجرون قراهم على اثر نيل شهادة ابتدائية ويتهافتون على ادنى الوظائف ناسين حكمة القول : فلاّح مكفيّ سلطان مخفيّ . واكثر جهالة من ابن الفلاح المستقل ابن الملاّك الشيخ او « البيك » الذي لا يزور املاكه الاّ في ايام البيادر حين

يقاسم الفلاحين شركاءه غلة الارض ثم يعود الى المدينة بمدخول لم يتعب في تحصيله . وكثيرون منهم لا يكتفون بذلك بل يزاحمون على الوظائف شباناً لم يورثهم آباؤهم لا ملكاً ولا تجارة سوى التعليم المدرسي الذي نالوا شهادته . او ادخل ايّ بيت من بيوت المدينة التي عليها شبه مسحة من حسن الحال . فالبيت مؤثث بالموبيليا الجيدة ومجهّز بكثير من الاجهزة الميكانيكية والكهربائية البيتية الحديثة وابناؤه قد تثقفوا بالعلم الحديث وبناته اكملن علمهن بدروس الفنون البيتية في المدرسة ، ولكن القائمين بالعمل في البيت هم الخدم المأجورون . وقد لا تجد في احد هذه البيوت مطرقة ومسماراً او منشاراً او اي اداة ميكانيكية بسيطة من الادوات التي لا يستغني عنها بيت .

ان العمل هو نشاط عام يشمل العمل العقلي المجرد واعمال الجوارح واعمال القلوب والاختبار العملي والصناعة . . . الى آخر ما هنالك من مساعي الانسان . والوجهة من العمل التي اشرنا اليها في ما سبق من البحث هي خدمة الانسان نفسه في حاجاته الاولية البيتية والشخصية التي هي قوام حياة الجسد ، وذلك علاوة على العمل الذي يرتزق به . كلا الوجهين من العمل هما من قوام الحياة الصالحة ، ولا تكون التربية صالحة حتى يرسخ في قلوب المتعلمين ضرورة العمل في الحياة ، وانه عار على الفرد

القادر على العمل ان يأكل خبزاً لم يتعب ولم يعرق جبينه في الحصول عليه ، وان يتكبّر على خدمة نفسه في بيته ، أأميراً كان ام فقيراً . اذا أمّ الرجل او اخته او زوجته طبخت له طعامه وغسلت له ثيابه فعليه هو ان يقوم بغير ذلك من الاعمال التي تتركها هي له . وان لم يكن بدّ من يد غريبة عن البيت تساعد في اعماله فمن حقها ، وهي تعمل للعائلة ، ان تعامل كفرد من العائلة .

واذا نظرنا الى وجهة الاختبار العملي والعلم الحديث في مناهج التعليم العصرية رأينا النتائج تتراوح بين معرفة صحيحة مع عمل مفيد وبين علم كلام وجدل . كل ذلك يتوقف على تنفيذ المنهج — على الطلاب من جهة وعلى معلميهم من الجهة الثانية . ان الغاء العلوم الطبيعية من مناهج الدراسة هو افضل من تلقين نصّها الكلامي تلقيناً ببغائياً من دون اساسها الاختباري العملي على نحو ما هو شائع في كثير من مدارس الاقطار العربية . لان التدريس على هذا النحو يوهم الطالب انه قد تعلم علماً . ويماشي هذا الوهمَ الادّعاءُ الفارغ والكبرياء والتبجّح .

ان ما يتعلمه صانع النجار والحداد في سنة واحدة بالعمل الجدّيّ قد يفضل من وجوه عديدة علوم الرياضيات والطبيعيات والكيمياء على حسب ما تدرّس في كثير من المدارس مستغرقة

خمس سنوات من الدراسة الثانوية . وما يتعلمه ابن الفلاح الفطن من زراعة البقول والازهار وغرس الاشجار وتربية الدواجن وخواص الاتربة وما يلاحظه من طبائع النباتات والحيوانات البرّية وتركيب الاراضي له قيمة اساسية في حياة كل فرد . ولكن ما يتعلمه طالب البكالوريا تحت عنوان التاريخ الطبيعي والحيوان والنبات قد يكون معظمه حشواً لا قيمة له سوى انه كلام عليه صبغة الثقافة . ان مبادىء اختبارات الفلاح القروي والعامل المدني التي نشأت وتدرجت عليها الانسانية والمدنية هي اساسية في حياة كل فرد يريد ان يفهم معنى ووزناً لحياته . وعليها يجب ان تؤسس وبها يجب ان تبدأ الدروس العلمية والابحاث الفلسفية . ان الخطأ الاساسيّ في منهج التعليم هو عزل الطالب عن تلك الاختبارات الحيوية ، التي لا قوام له من دونها مثلما لا قوام بغرسةٍ مقطّعةٍ جذورها .

واذا القينا نظرة عامة على النتائج من جهة ادراك الطالب العقلي وفهمه المواضيع المدرجة في المنهج فأقول ان ليس بين طلاب التعليم العام اكثر من واحد من كل عشرة يفهم مادة المواضيع المدرجة في المنهج فهماً مقبولاً يستحق درجة النجاح . ولكن عدد « الناجحين » اكثر من ذلك بكثير . فشهادات المدارس فيها توَهّم وايهام بخلاف الحقيقة . وكثير من العلم والثقافة الذي

تشهد به الشهادة ليس سوى تبرّج وزيف . قد يجهل الكثيرون هذه الحقيقة ولا يقدّرون اهميتها ، وقد يتجاهلها البعض وينكرها البعض الآخر ، ولكني لا اشك في ان كثيرين من حاملي الشهادات انفسهم ومن المدرّسين ايضاً الذين صححوا الامتحانات النهائية يعترفون بها ان لم يكن علانية ففي سرّهم وفي قرارة انفسهم وضمائرهم . ما دامت للشهادات المدرسية قيمة تجارية فجمهور الشعب لا يثير هذه القضية حتى تثير هي فيه الألم فوق الحد الذي يتحمله على مضض وسكوت . وهي قضية يطول الحديث الذي يوفيها حق اهميتها .

اما تقصير التعليم العام من جهة الذوق الأدبي والفني فظاهر ظهوراً يبهر الأعين في حياة حاملي الشهادات المدرسية ، وذلك في اقبالهم على الروايات السخيفة اقبالاً يفوق اقبالهم على الكتب العلمية والأدبية الاخلاقية ، وفي انجرافهم الى المقاهي والملاهي حيث يسطع التصنّع في قيافتهم الشخصية وعلامات السآمة والضجر في حركاتهم ونظراتهم وحديثهم الذي لا يتميّز فيه المتعلم عن الأمي ، وفي تهافتهم على الروايات السينمائية التي ملؤها السخافات وتوافه الحياة مرصّعة بالتوريات الشهوانية ، حيث يجلس دكتور الفلسفة الى جانب الأمّي والشيخ الى جانب الصبيّ كلهم يتلقفون غذاء عقليّاً ادبيّاً ثقافيّاً واحداً . اما ابناء

لبنان الذين يتغنون بجمال جبلهم فأخصّهم بالملاحظات التالية : كثيرون من خريجي المدارس يتركون جبلهم الجميل وجمال الحياة في حقوله وكرومه وبساتينه واوديته فيؤمّون مدنه المزدحمة متوهّمين ان القرية ضيقة عليهم وانّ في المدينة مجالاً واسعاً ورفاهية . فهم كدودة القزّ التي لا تدرك من جمال الأشجار سوى ازدراد اوراقها ثم تغلق على نفسها في الشرنقة حيث تختنق قبل ان تتاح لها الحياة المجنحة . وابناء الأقطار العربية الشقيقة الذين يؤمون لبنان للاصطياف يغلقون على انفسهم في قرى الاصطياف المزدحمة متوهمين ان جمال لبنان ورغد العيش فيه هما في ازدحام المقاهي وجلبة الملاهي. وأذكّر بهذه المناسبة ابناء لبنان بقانون البلاد الذي يمنع صيد العصافير منعاً باتّاً وقطع الأشجار لغير الحاجات الضرورية . ويؤسفني ان ارى ابناء المدارس زرافات متأبطين بنادق الصيد يطاردون ويقتلون اجمل مخلوقات الطبيعة ويهشمون الأشجار خصوصاً ما غرس منها على جوانب الطرقات لتجميلها . اذا كان طلبة المدارس عمياً وصمّاً عن جمال في الطبيعة ، ولا ما يكبح فيهم الميل الى التخريب والتدمير والأذى ، ولا ما يفتح فيهم الشعور بواجب اطاعة قانون البلاد ، فأيّ خير نأمله من المدارس ومناهجها ؟

ومثلما في العلم والعمل وفي الذوق الأدبي والفني كذلك في الأخلاق نرى بين عنوان المنهج ونتيجته لا بُعداً شاسعاً بل تناقضاً صريحاً . ونكتفي بمثال واحد للدلالة على ذلك . ان التشديد واليقظة في مراقبة الامتحانات لمنع الطلاب من الغش ولمنع المدرّسين من التلاعب في تقدير الدرجات وتسجيلها لهو شهادة صادقة صريحة وان تكن غير مقصودة بان الأكثرية الساحقة من الطلاب وعدداً ليس قليلًا من المدرّسين لا يؤتمنون اكثر مما يؤتمن هرّ جائع على قطعة من الجبن . اثنتا عشرة سنة يقضيها الطالب حتى ينال شهادة التعليم العام وهو لم يتعلم الأمانة والصدق . فهل ادلّ على التناقض بين ما يدعيه عنوان المنهج وبين ما نشهده من نتائجه النهائية ؟

ان التعليم قد اصبح عبئاً ثقيلًا على عامة الشعب لا من جهة اجور المدارس فقط ولكن من جهة طول مدة الدراسة العامة ايضاً . ومناهج التعليم اصبحت مثقلة بالحشو الموهوم انه علم وثقافة ولكن ليس فيه غذاء للعقل ولا للقلب. هو كالعلف الذي فيه كثير من التبن وقليل من الحبّ . وخريج البكالوريا ملء رأسه الحشو الذي في منهج التعليم العام . ليس له معرفة او رغبة ليخدم نفسه في حاجات الحياة الأولية الأساسية ، وليس له مهنة غير الكتابة البسيطة ، وليس له ما للعامل الأمّي البسيط

من الاقدام على العمل والشجاعة والصبر لاقتبال ما يصيبه من حوادث الحياة .

ان الحاجة ماسة في كل اقطار العالم الى تعديل مناهج التعليم العام والى تنفيذها لا بحرفها ، بل بروح الصدق وحب العلم والعمل . يجب طرح الحشو الذي فيها خارجاً وادخال الجوهر المنبوذ بحيث تقل سنو الدراسة ويتخرج افراد لهم حب للعمل واقدام عليه واشتياق وتعطش لمداومة الدراسة الفردية مدى الحياة وهم يتميّزون بتربية كاملة خالصة من الزائف الذي يترع حياة هذا الجيل .

التربية القومية الوطنية

امنيّة ما أحلاها وحلم ما أطيب تحقيقه أن ينشأ الانسان على محبة قريبه ويتفاني في خدمة بني قومه خدمة محبة خالصة منزّهة عن كل مأرب دنيويّ ، وان يعيش الجميع في صفاء وسلام وأمان واطمئنان . القويّ يمتلك الضعيف بمساعدته اياه ، والضعيف يتغلّب على القوي بالمحبة وعرفان الجميل . الفرد يتحقق صلاح حاله بصلاح حال المجتمع فهو لا يرى فاصلاً بين نفسه الفردية ومجتمعه ، وليست له مصلحة شخصية تتناقض مع المصلحة العامة . والنظام الاجتماعي لا يكون فيه أثر للتفريق والتناقض بين مصلحة الفرد وحسن حاله وبين المصلحة الاجتماعية والخير العام . فهو نظام يفسح المجال لكل نفس فردية ان تحصل على حاجتها في ما يلزمها لتفتّح قواها ومواهبها ومعرفتها . والمجتمع الذي تسوده هذه الروح لا ينشأ فيه الخلاف المؤدي الى الجدل العقيم في التناظر بين الفرد والمجتمع : في ايهما الحقيقة الأساسية ، وهل التنظيم الاجتماعي يجب ان يكون مبنيّاً على الحرية الفردية ام على سلطة الدولة . ولا تتفجّر في ذاك المجتمع

براكين الحقد والعداء بين طبقة وطبقة ، ولا تندلع نيران القلاقل والاضطرابات والثورات الداخلية حتى ولا الحروب مع بقية الأقوام . بل يعيش كل فرد في سلام وهناء واغتباط بالحياة .

قد تكون تلك الحالة بعيدة جدّاً عن ان تعمّ الانسانية بكل ما فيها من الشعوب والاقوام والافراد . ولكنها قريبة للفرد الذي يطلبها بكل قلبه وحرارة ايمانه . فهو اذا احبّ واعطى وبذل نفسه في خدمة بني قومه خدمة محبة خالصة مجرّدة عن طلب كل مكافأة يحصل على الطمأنينة النفسية والاغتباط اللذين يطلبهما الناس من المجتمع الصالح . فعالمه هو قد اصبح عالماً صالحاً . والشعب الذي يعيش بهذه الروح يحصل على كل حاجاته ويعيش عيش صفاء آمناً من كل اعتداء ولو كانت بقية الشعوب في خصام ونزاع . ولكن من يدرك تلك الحالة المثلى عن بعيد بخياله ويظل مكبّلاً بشهواته فعبثاً يطبّل ويزمّر ويموّه على نفسه وبني قومه باقامة الشعائر القومية والمراسيم الوطنية او باثارة الجماهير للتظاهر بمظاهرات غوغائية او للجهاد بمصادمات دامية لأجل العدل والانصاف داخل الوطن او لصون الوطن من اعتداء خارجي . لأن الوطن الموهوم الذي يريد ان يحرره من اعدائه وان يصونه من اعتداء محتمل يظل وطناً محاطاً بالاعداء ، لا ينجلي جوّ العداء والخوف من الاعتداء عن عقول

بنيه وقلوبهم . اذا تقلّص عنه ظلّ عدوّ اقترب منه شبح عدوّ آخر . والمجتمع القومي الذي يريد اصلاحه بالتشريع الحكومي يظل مجتمعاً مشبعاً بالفساد والاعوجاج والفوضى . اذا خفتت فيه مظاهر شرّ تفجّرت ينابيع شرّ آخر .

ان الجماهير والاقوام في انقيادها الى الهياج والغوغاء والفوضى مطالبة بالعدل والانصاف باسم الوطن تحت تأثير وحثّ الافراد المشبعين بالروح الوطنية القومية تبيّن من دون شك ان قد طفح كأس احتمالها لظلم واجحاف لحقا بها . ولكنها هي وقادتها تجهل ان في قلوب افرادها سبباً داعياً للظلم الذي حلّ بها . وبتعبير آخر : لا بصيرة متفتحة ثاقبة لها حتى تدرك ان الظلم والاجحاف اللذين قد لحقا بها كان منشؤهما في قلوب افرادها فصدرا عنها ، وبعد دورة طويلة عادا اليها على يد عدوّ ظالم . وذاك العدوّ قد يكون فئة من الشعب نفسه او فئة من شعب آخر او تحالفاً بين الفئتين . من ينقّي قلبه من الظلم والاعتداء لا يقع عليه اعتداء ولا يلحق به ظلم . ومن تحرّر من شهواته فلا تقدر ان تستعبده قوة من قوى العالم .

يصعب على معظم الناس ادراك هذه الحقيقة البسيطة وقبولها ، ولكن لو ادركها دعاة الوطنية والقومية والاصلاح الاجتماعي لتغيّرت وجهة نظرهم واساليبهم في العمل الذي غايته تحرير

الافراد والشعوب ، واجراء العدل الاجتماعي ، وتعميم صفاء العيش حتى يشمل كل انسان . ويجب التحذّر من اساءة تفسير هذه الحقيقة بان المظلوم قد استحق الظلم فيجب ان نساعد الظالم في تنفيذ ظلمه او على الأقل ان لا نقاومه . او ان المريض قد استحق المرض والألم بمخالفته القوانين الصحية فيجب ان نقسّي قلوبنا عليه . كلا ! فالمظلوم والمريض كلاهما يحتاجان الى عطفنا مثلما كل فرد منا يتوق في اعماق قلبه الى العطف والمحبة . وانماء العاطفة بممارسة العطف ضروري للنفس ضرورة الغذاء والماء والتنفس للجسد . وضروري ان نقاوم المرض والظلم ، ولكن في نفوسنا اولاً بتنقية قلوبنا من الأسباب المؤدية اليهما ثم بحمل غيرنا من الأنفس الفردية بالتعليم والتربية ، بالارشاد والمثال الصحيح الصالح ، على تنقية القلب من أسباب المرض والظلم .

كل محاولة لاصلاح اجتماعي بالتشريع والتنفيذ بواسطة الحكومة من دون اعداد النفوس الفردية في المجتمع بالتربية الصالحة لاقتبال النظام في قلوبها بفسح المجال له — ولا يكون ذلك الاّ بتنقية القلب والفكر مما يتناقض معه — هي محاولة فاشلة . فالموكول اليهم تنفيذ النظام هم انفسهم من كبيرهم الى صغيرهم يعبثون بالنظام والقانون ويسيئون استعمال السلطة المفوضة اليهم

فيستغلونها للاحتكار والمتاجرة بالمواد التي يمنعها القانون . وكل محاولة قومية لدرء اعتداء خارجي بزيادة جهاز الدفاع الحربي هي محاولة فاشلة ايضاً لانها تجعل بدل السبب الواحد سببين لوقوع الحرب . ففكرة التحصّن بالسلاح والدفاع هي تشبّث بالمحافظة على الشيء الذي يثير العداوة في قلوب الغير ويدعو الى الاعتداء . والاستعداد للحرب حتى للدفاع الصرف الموهوم هو بذاته استظهار روح العداء وهو يؤدّي الى الوقوع في الحرب. هذه هي الامم المتحدة قد قضت على جيوش اعدائها ويحق لها ان ترتاح الى استقبال سلم عالمي دائم. ولكن شبح الحرب لا يزال يخيفها اكثر مما كان قبيل الحربين العالميتين . فهي لا تعلم من اين ولا متى تتفتح فوهات براكين جديدة وهي لا تزال متشبثة مثقلة بجهازها الحربي الذي تكاد ترزح تحته .

ان تمحيص الفكرة القومية السياسية التي وصلت الى اوج حدّتها في القوميات والدول الحديثة يبيّن انها — اي الفكرة القومية - هي مظهر الانانية الفردية على المستوى الاجتماعي الشعبي ، انانية النفس الفردية الجاهلة التي لا تزال تتوهم وترى نفسها منفصلة ومستقلة عن النفس الكلية الشاملة . فالانانية الشعبية القومية هي جبهة واحدة لانانيات فردية وقد انتفضت في دور من الحمّى وصوّبت نبالها كلها في اتجاه واحد ضد جبهة قومية

مماثلة في حالتها النفسية لكنها معادية . هي الانانية التي تقول « بلادي ! أعلى صواب وحق ام على اعتداء وضلال » او «بلادي فوق الجميع » او « انا واخي على ابن عمي وانا وابن عمي على الغريب ». وهي الآن مأخوذة بمداهمة العدو الغريب. ولكنها وان صوّبت نبالها اليه فجوانبها مدججة بالاشواك المصوبة الى اخيها وابن عمها . وقد شاهدنا كفاية في الحربين العالميتين من الروح الوطنية القومية في اشد حالاتها الحماسية جنباً الى جنب متعانقة مع روح الجشع والطمع والاستئثار بين ابناء الوطن الواحد والشعب الواحد المتجلية في احتكار الغذاء والملبوسات والحاجات الضرورية وفي استقطار الثروات من دماء القتلى في ساحات الحرب ومن انفاس الفقراء الذين هلكوا من العوز والجوع.

والامر الحريّ بالملاحظة والانتباه هو ان الروح الوطنية القومية لا تظهر في ابهى مظاهرها الاّ في حالات فوران الدم والهياج الشديد، وان التفكير السليم والمعرفة الصحيحة لا يترافقان مع الحالة النفسية الهائجة . ان فوران الدم وهياج النفس لا يؤديان الاّ الى التشويش في الفكر والفوضى في العمل. وهذان يفسحان المجال لكل مغامر يستغل الموقف لتوطيد نفوذه وزيادة ثروته الشخصية وهو ينادي باسم الوطن !

وقد ادّى شيوع الروح القومية في جميع اقطار العالم الى

زيادة القيود التي تفرضها الحكومات على الافراد في حياتهم الفردية والاجتماعية والى زيادة الضغط عليهم وإثقالهم بالضرائب للمصارفات التي تقتضيها مظاهر الروح القومية خصوصاً في تضخيم الجهاز الحربي. هذا من الجهة الداخلية. اما من الجهة الخارجية فقد اصبح لكل دولة شبه سور يتعالى حولها ليعزلها تدريجياً عن بقية الدول. وابرز مظاهر ذاك السور في ما عدا التحصينات الحربية هو الحواجز الجمركية والمالية وجوازات السفر واقامة الاجانب في بلاد غير بلادهم الى آخر ما هنالك من التضييقات التي تأتي مع الحرب ولا تزول بانتهائها بل تستمر في فترة السلم بعدها.

ان الدول الكبيرة لم يتجلّ لها فَهْمٌ أعلى درجةً من فهم الدول الصغيرة متناسب مع نفوذها السياسي وجهازها الحربي. فهي وان نادت بحرية الشعوب السياسية وتحرير الافراد من العوز المادّيّ والتقييد الفكريّ لكنها ما زالت متشبثة بمصالحها القومية التي هي مجموع وتحالف مصالح فردية. وبمحافظتها على تلك المصالح ستظل مثقلة بالقيود التي ترسف فيها وهي قد خلقتها لنفسها. والدول الصغيرة تتوهم ان سعادتها هي في تقليد الدول الكبيرة، في ان يكون لها جيش — وهو عنوان العزة القومية وشعارها — وسفراء وقناصل، وان تكون ذات استقلال سياسي كامل ناجز. والحقيقة لو ادركوها هي ان شعوب الدول العظيمة

ليست اكثر سعادة من شعوب الدويلات القليلة في عدد نفوسها الضعيفة في نظر العالم. وافراد الشعوب القليلة العدد، حتى الذين هم تحت سيطرة او نفوذ الدول الكبرى، ليسوا اقلّ حرية من افراد الشعوب ذات الدول الكبرى الاّ فيما يحوكونه هم لانفسهم من القيود. لكن الوهم في حياة الناس هو كالسراب للمسافرين في الصحراء. ولو كانت لهم بصيرة ثاقبة لرأوا ان معظم الظلم والاجحاف اللاحق بهم والذي يؤلمهم انما يأتيهم من ابناء بلادهم ووطنهم، والاستقلال السياسي الذي ينشدونه لا يخلّصهم منه.

ان في العالم قوى باطنة تعمل على جمع الشعوب وتآلفها. وما المظاهر التي ترينا عكس ذلك سوى نتائج معاندة الشعوب ومعاكستهم لقوى الحياة الشاملة. فالانانية الفردية والروح القومية هي نزعة رجعية بالنسبة الى الغاية التي تقودنا اليها الحياة. قد نتهكّم على اقوال بعض الزعماء السياسيين العالميين في تحرير الشعوب لاننا نرى اعمالاً تناقض الاقوال. ولكن ظهور هذه الافكار هو دليل كافٍ على ان فكرة الانسانية العامة قد لاحت تباشير فجرها. وما تناقض الحوادث والاعمال مع الاقوال سوى صراع الانسان مع نفسه، فهو يحاول ان يمتثل للصوت الجديد وشهواته لا تزال متسلطة عليه. الدول الصغيرة والشعوب القليلة العدد ميّالة ان تُلقي كل اسباب الاجحاف على عاتق الدول

الكبيرة ولكنها تشاركها مشاركة تامة في اساءة فهم وتطبيق العلاقات الودية التي لا تستغني عنها احداها. فالدول الصغيرة هي في حاجة الى الدول الكبيرة على قدر ما الدول الكبيرة في حاجة الى الصغيرة في سياسة شعوب العالم .

ان الروح القومية الوطنية التي تبلورت في هذا العصر على شكل دول ذات علم ونشيد وطني وجهاز حربي ، والتي اصبح ابناء هذا العصر يقدسونها الى حد العبادة ، قد توجهت الى التربية والتعليم وتأصلت في قلوب طلبة المدارس من الابتدائيات حتى الجامعات العالية . والمغالون فيها يريدون ان يجعلوها الغاية الواحدة المثلى للتعليم والتربية وان تكون كل المدارس ومعاهد التعليم تحت سيطرة الحكومة . فالطلبة في هذه الحالة يتدربون بحيث يتأصل فيهم الشعور بانهم جنود الدولة يفدون ارواحهم لاجلها حين ينفخ البوق ويدق الطبل لاجل الحرب . واما العلم في تربية كهذه فهو السلاح الاول في الحرب الحديثة والواسطة الفعالة لانماء الثروة . واما الاخلاق فهي الحد الادنى من حيث الوازع اللازم لمنع الافراد عن نهش بعضهم بعضاً على نحو ما تعمل جماعة الذئاب حين يعضها الجوع . والمعتدلون في عقيدتهم القومية يلطفونها ببعض المبادىء الانسانية العامة . ومنهم من يبررها بانها خطوة متوسطة لا مناص منها في التطوّر نحو الانسانية

العامة . ولكن مهما يكن من تلطيف واعتدال فتصويب غاية التعليم والتربية الى غـاية السياسة القومية او القومية السياسية بالاختصار او الاستغناء عن تهذيب النفوس الفردية وتقويم اخلاقها على مبادىء الانسانية العامة هو توجيه شبيه باعطاء الجهّال سلاحاً يشحذونه عوضاً عن ادوات للزراعة والصناعة يستغلونها. فالتعليم الموجّه الى تلك الغاية حتى ولو تلطف بآراء المعتدلين يؤدّي في النهاية الى تحويل قسم من منهج الدراسة الى استعراضات شبه عسكرية تتقدمها الطبول والزمور ، والى تشويه في علم التأريخ والاجتماع ، وتشتت في القوى الفكرية فتقصير الطلبة عن متابعة التفكير المجرد ، وشيوع روح الغش والكذب ونشوء روح التمرد والاضراب والمظاهرات الجماهيرية الغوغائية . ولا حاجة الى تحليل فلسفي للبرهان على ذلك ، فالنتائج الفعلية هي البرهان الكافي الوافي . قد لا نرى نحن ابناء الاقطار العربية حقيقة هذه الحالة في الوقت الحاضر لاننا منجرفون مع الغوغاء. ولكن متى تحررنا منها تساقط شيء من الغشاوات عن اعيننا، وعندئذ نبصر.

ان المبادىء الاساسية للتربية هي عامة لكل الافراد في امة واحدة ولكل الامم والشعوب في الانسانية ، فهي مبادىء انسانية عامة ، وهي ان يعرف الانسان نفسه وان يفهم معنى حياته وغايتها وان تتفتح فيه قواه العقلية والخلقية تدريجياً بالتدريب والرياضة

المتوافقة مع ناموس تفتّح القوى في الانسان. والطريق الى إصلاح حياة الانسان هي طريق الحياة الصالحة – حياة الفضيلة. وبداية الطريق هي ان يتعلم الفرد الصدق والحق في تفكيره وقوله وعمله، وان يحبّ قريبه كنفسه، وان يسعى ويعمل لاجل المعرفة والفهم لا لاجل الربح، وان يتعلم التضحية والتنازل عما في يده لمن هو في حاجة اليه اكثر منه. فذلك افضل له من التشبّث بما يسميه الناس حقوقهم. انّ الافراد الذين ينشأون على هذه التربية يؤلفون افضل الاقوام والامم. ولا يصطلح حال شعب من دون ان يسلك افراده طريق التربية الانسانية. ولا طريق مختصر من دونها – كما يعتقد دعاة السياسة القومية – تؤمّن للشعب خيرات ارضه من دون ان يفيض الخير من نفسه اولاً.

من يحاول ان يضيّق التربية بتحديدها ضمن نطاق فهو كمن يحوّل الماء الجاري الى بركة آسنة او كمن يحصر الهواء النقيّ في غرفة مقفلة الشبابيك والابواب. ومن يجعل وظيفة التربية خدمة القومية السياسية فهو يسعى لخلق قومية ناقصة التربية. ومنهم من يظن ان طريق التربية الانسانية طويلة او مستحيلة لانها على زعمه تحاول تغيير طبيعة الانسان وذلك في نظره مستحيل. وكثيرون هم دعاة القومية الوطنية الذين بهذه العقلية يحاولون تعميم نظام يتوهمونه صالحاً على شعب لا يتغيّر عن طبيعته

فيفسح مجالاً في قلبه لاقتبال النظام . والتربية كانت منذ فجر الانسانية وستظل حتى بلوغ الانسانية كمالها مبنية على عقيدتها الواحدة التي لا تتزعزع ، وهي امكانية تغيير طبيعة الانسان. على حسب وقدر ما يغيّر الانسان قلبه تتغيّر حاله .

« ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بانفسهم »

الثّقافة

الثقافة اسم لمعنى داهٍ يصعب وصفه وتصويره بالخصال النفسية التي تظهر في الشخص المثقف. ويتخذ دعاة الثقافة دهاء هذا المعنى دليلاً على سموّه تبعاً لكون الاشياء المألوفة المبتذلة سهلة التعريف والوصف ولكون المعاني المتعالية عن المبتذل المتباعدة عن المألوف تتعاصى على الانقياد للتعريف والوصف. لكن في هذا النوع من التحصّن مزلقاً يؤدّي الى هوّة. فالغموض قد يلتبس على العقل ويظهر بمظهر الدهاء مثلما علم الكائنات والعلاقات الداهية قد يظهر غامضاً لمن ليس له الاستعداد لفهمه. وقصدنا في بدء هذا البحث ان نجلو الغموض المتلبّس على الثقافة وما ادّى اليه من الحشو والتمويه في مناهج التعليم.

ان للكهربائية كياناً داهياً لا تدركه الحواس السّويّة مباشرة الاّ في حالة التوتّر الشديد. ولكنها تظهر على طبقة الحس بمظهر الحرارة والضوء او التفاعل الكيميائي او المغناطيس والحركة حين يعترض مجراها الجهاز المناسب. ويحصل ذلك تبعاً لقوانين معيّنة وهي قوانين واضحة لمن يتبع طريق المعرفة

الصحيحة للوصول اليها فيتمكن بمعرفة تلك القوانين من ضبط الكهربائية في مجاريها واستخدامها كما اصبح شائعاً ومعروفاً في هذا العصر. ان ماهيّة الكهربائية لا تزال سرّاً داهياً مغلقاً ولكن كيفية استظهارها واستخدامها في اعمال دقيقة عجيبة هي علم مضبوط واضح لا غموض فيه لمن استعدّ له ودرسه وهو ذو قوى عقلية متفتحة الى الدرجة الكافية. لكن علم احكام النجوم هو علم غامض يدّعي اربابه معرفة مجرى حياة الفرد بما فيها من سعود ونحوس وحوادث ذات اهمية وخصال نفسية غالبة وذلك من معرفة تاريخ الولادة ومطالع النجوم والكواكب. ومع ان المعلومات التي يبدأ بها هذا العلم والنتائج التي يدّعي الوصول اليها هي أشياء ظاهرة واضحة لكن كيفية ارتباط هذا بذاك هي امر غامض اذ لا يعرف احد ممن يدّعون هذا العلم معرفة صحيحة عمّا قد يكون او لا يكون من العلاقة والارتباط بين اوضاع وحركات الكواكب والنجوم من جهة وتقرير مصير حياة الفرد وهو جنين ينمو في بطن امه من الجهة الثانية. وحتى الآن لم يروِ هذا العلم غليل ظمىء وردَه ليستقي منه معرفة واطمئناناً. ومع ذلك فلا يزال قسم عظيم من البشرية يتهافت عليه توهّماً منهم ان معرفة ذوي هذا العلم قد تردّ عنهم ما حتّمه عليهم القدر.

ويظهر لي ان الثقافة في تربيتنا الحديثة هي اقرب شبهاً بعلم احكام النجوم الغامض مما هي بعلم الكهربائية الدّاهية . لأن معرفتنا عن قوانين الارتباط بين المواضيع الدراسية التي اتسمت بميسم الثقافة وبين الأخلاق والصفات الفردية التي تحسب من مميزات الثقافة هي معرفة تكاد تكون مثل معرفتنا بقوانين الارتباط بين مطالع وقرانات الكواكب ومواليد الافراد . ومن يظن ان في هذا القول تهجّماً وتهكّماً فليفسّر كيف يُحسب ثقافة درس اللغة اللاتينية وشعر امرىء القيس وابن ابي ربيعة والحطيئة والشنفرى وتأبّط شرّاً ومجنون ليلى وابي نواس وعلم تأريخ قوميّ محشوّ ومشوّه بالأكاذيب البيضاء ، ولا يحسب ثقافة علم الطيف الشمسي بواسطة السبكترسكوب حيث في مشاهدة الطيف نفسه جمال رائع وفي تفهّم مدلوله خيال يصل العقل الفرديّ بأقاصي الكون في لحظة كوميض البرق ، او علم الطبيعة بمشاهدتها الذي يفتح القلب والباصرة لادراك جمال الطبيعة ويوقظ في النفس الفردية بصيرة تريها الصلة وتفتّح المحبة بينها وبين كل ما في الطبيعة . او كيف ما يسمونها التربية الوطنية والدروس الخاصة بها تحسب ثقافة وهي تؤدي في المجتمع الى اعتبار من يحيّي خرقة ملوّنة ويطبّل ويزمّر لها وطنيّاً غيوراً ، اما من يؤمن بالله تعالى ويعفّ عن الارتشاء

وسرقة اموال الدولة او الاثراء من احتكار الحاجات اثناء الحرب العالمية فهو في عرف تلك الثقافة عبيط ساذج .

ان الثقافة المقتصرة على بعض فروع المنهج الدراسي قد تضخمت في اعيننا بحيث امسينا نرى كل التربية فيها . وهذه ابواقها وطبولها في مهرجانها الجامع تضخّم صوت التاريخ والجغرافيا واللغة و« التربية الوطنية » . اما تدريب الطلاب على ادراك النظام في المعرفة العلمية الصحيحة وعلى انتهاج الصدق والحق وعلى ادراك الجمال وعلى محبة الجار واغاثة الضعيف فذلك كله لا صوت له عن منبر الثقافة ولا محل له في منهاجها .

اذا تقصّيت معنى الثقافة باستجلاء مظاهرها في اخلاق الشخص المثقف وتصرفه وجدت ان ما يسمونه ثقافة ليس سوى وجه واحد من التربية الكاملة لا قوام له بذاته . ان اعتبار الثقافة كأنها فرع من التربية مستقل بذاته ، وتعيين دروس موسومة بميسم الثقافة كأنّ خلاصة الثقافة متجمعة فيها ، وشطر المنهج الدراسيّ الى شطرين : واحد ادبي اجتماعي ثقافي والآخر علمي عملي دنيويّ ، ورش فرع الأدب والثقافة بمسحوق العلم ، وفرع العلم بمحلول الأدب والثقافة — ان ذلك قد جعل الثقافة في منهج الدراسة علم كلام وجعل شطري الطلاب التابعين لشطري المنهج ناقصين في العلم والمعرفة والتربية . فما تضجُّر

طلاب الفرع العلمي من ثرثرة العنصر الثقافيّ في منهجهم وانين طلاب الفرع الأدبي من ثقل العنصر العلمي وجفافه وغموضه في منهجهم سوى مظهر من مظاهر النقص في تربية كليهما . فكأنّ شطراً منهم ينشد افضلية الرِجل اليمنى ويقصر الرياضة عليها والشطر الآخر يرى الأفضلية للرجل اليسرى . كل منهما يدخل الى منهج التدريب برجلين سويّتين ويخرج منه اعرج . ان كانت الثقافة من اختصاص بعض دروس المنهج دون سواها فمن المنتظر ان يؤدّي التخصص العالي في العلوم الرياضية الطبيعية الى انتاج جبابرة اقوياء كالتمساح ، وان يؤدّي التخصص في الأدب والثقافة الى خرفان مسمّنة ذات صوف ناعم ولكن ليست لها الصلابة الكافية في عظامها . والواقع ان الغلوّ في تفريق الثقافة عن المعرفة العلمية العملية يؤدّي الى شبه المثالين المعطيين . وما ذاك التفريق سوى نتيجة العماء عن الجمال في المعرفة العلمية فتوجيهها الى تضخم الحاجات الدنيوية ، والتيه عن المعرفة في الجمال الفنيّ فتوجيهه الى الانتشاء على مستوى الحس . وبتعبير آخر قد سلخنا الجمال عن المعرفة في العلم ، والمعرفة عن الجمال في الفنّ ، ثم رجعنا بواسطة الدروس العلمية الصرف والدروس الثقافية الصرف الى جبر المعرفة التي في العلم مع الجمال الذي في الفن . وكذلك في تدريس العلوم

الاجتماعية والنفسية بالمقابلة مع الأشياء المعتبرة انها خارجة عن نفس الانسان كالعلوم المادية والرياضية والطبيعية التي غايتها الاعمال العمرانية قد فرّقنا مساعي الانسان في الزراعة والصناعة والتجارة عن مساعيه في فهم نفسه والمجتمع وفي التآلف والتعاون واصلاح التنافر بين الناس . وليس تآلف بين الناس من دون داعي العمل الاجماعي ، ولا عمل اجماعي من دون تآلف . وكذلك لا يفهم الانسان نفسه من دون ان يعمل عملاً ما ، وكل عمل يعمله يؤدي في النهاية الى فهم نفسه . ومع ذلك فقد جعلنا درس الواحد ثقافة ودرس الآخر علماً ، كل مستقل عن الآخر في منهج التدريس ولا قوام للواحد من دون الآخر في الواقع ، وليس للواحد معنى كامل فيفهم وهو محلول حلًا تاماً ومعزول عن الآخر .

قد يكون لطريقة العلم الحديث في التحليل الرياضي اشتراك في سبب شطر موضوع البحث او التدريس او منهج التربية الى شطرين لأجل تبسيطه وتفهّمه،لكن التحليل الرياضي يعود فيجبر الشطرين في النتيجة النهائية كما في درس الحركة على مسير منحنٍ . فحركة القذائف مثلًا تكون على خط منحنٍ بشكل قوس ولكنها تحلّ الى حركتين متواقتين كأنهما مستقلتان، الواحدة حركة افقية ، والثانية حركة عمودية . وبحسب حساب كل

حركة على حدة . ولكن النتيجة النهائية كما في معرفة وضع القذيفة واتجاه حركتها وسرعتها في لحظة معينة تحسب بجبر الحركتين وتعيين وضع القذيفة وحركتها على مسيرها لا على المسيرين الوهميين ، الأفقي والعمودي ، اللذين هما تجريد عقلي . ويظهر لنا ان بعض الابحاث التي اقتبست حديثاً الاسلوب العلمي في التحليل كالأدب الحديث والثقافة والاجتماع والتأريخ — او بالحريّ الكتّاب في هذه المواضيع الذين ليس لهم المام بالاسلوب التحليلي كما هو في اصله يشطّون في احد الشطور التي يشطر اليها البحث وينسون انه تجريد عقلي فلا يعودون الى جبره مع بقية الشطور في النتيجة النهائية . والشطر الواحد بنفسه لا معنى كامل له لأن التجريد العقلي في اختبار ومعرفة متوسط الانسانية في درجتها الحالية من التفتح العقلي هو حلقة متوسطة لا نتيجة نهائية . والنتيجة النهائية يجب ان تكون في صيغة الاختبار النفسي بالتطبيق العملي . المستغنون بالتفكير المجرد عن التطبيق العملي هم القلائل الذين سموا عن درجة الانسانية التي نعرفها . ان الثقافة الموهومة انها وقف على بعض الدروس كالآداب والفنون والاجتماعيات دون غيرها هي من هذا النوع من التجريد العقلي غير المجبور ، وهي في نتيجتها النهائية تنحط الى علم كلام وجدل لا يترجم الى صيغة الاختبار النفسي في حياة

الفرد ، ولا يؤدّي الى تفتح المعرفة ولا الى ادراك الجمال في الحياة . هذا اقلّ ما يقال عنها في حالة كفّ النظر عمّا في الأدب والفن مما لا جمال فيه بل توريات مسكرة مخدرة وفي علم الاجتماع والسياسة من الأوهام والعقائد الفاسدة المتجلببة بزيّ التفكير الحديث . وكأني ببعض القراء يقولون : وهل الكاتب يشهر حرباً على الثقافة ؟ كلا ! لكني اوجّه انتباه القارىء الى مزالق ومعاثر التمويه في هذا العصر ، تمويه الانسان على نفسه بتربية ناقصة تدّعي ان فيها كيلًا من كماليات الثقافة زائداً عن ملء الحاجات الضرورية . ان كان ما يسمى ثقافة ذا قيمة فهو من ضروريات الحياة الاساسية لا من الكماليات التي قد يستغنى عنها . واراني بالوصول الى هذا الحد قد بلغت اوج البحث ونقطة الافتراق عن منهج الثقافة الكلاسيكي .

ان الثقافة الدارجة في مناهج التعليم والتربية هي اصطلاح لمعنى غامض . ويؤدّي الغموض فيه الى التوهم بان بعض الدروس الخاصة تؤدّي دون غيرها الى الخصال النفسية المعتبرة انها من مظاهر الثقافة في الشخص المثقف . واذا محصنا معرفتنا عن العلاقات بين المبادىء في الدروس الثقافية الخاصة والنتائج في الخصال النفسية الخاصة بالثقافة وجدنا انها تقارب نوع معرفتنا في علم احكام النجوم عن العلاقات بين قرانات الكواكب

وحركاتها وبين الجنين في بطن امه بحيث تحتّم حركات الكواكب اثناء حمله نصيبه في الحياة بين ولادته وموته . ان معنى الثقافة فضولي بازاء التربية الصحيحة الكاملة حيث صحة التربية هي في ضبط توجيهها الى غاية الحياة المثلى وكمالها هو في درجة اقترابها بنتائجها مما ادركته الانسانية بخيالها ، على بدء تفتحه في متوسط ابنائها وبناتهـــا ، وان تكن مقصّرة في الاختبار الفعلي عما ادركته بالخيال . ان ضبط التوجيه الى غاية الحيـاة المثلى يجب ان يكون من الخواص الأساسيـة في كل درس من دروس المنهج ، وتسلسل الدروس وتعاقبهـا يجب ان يكون بالتوافق مـع تفتح القوى العقلية على مستوى الاختبـار الحسي اولاً فالتفكير المجرد والتأمل الباطن تالياً . والمعرفة التي هي غايـة التعليم والتربية تصل الى مرتبتها الانسانيـة بتفتح قوى التفكير المجرد والتأمـل الباطن التي على ضآلتها في بادىء الأمر تماشي الاختبار الحسي الذي يستغرق معظم الجهود فتجعل منـه بناءً منظماً وهو من دونها كومة ركام وحطام . ولا يتسارع تفتح التفكير المجرد حتى تقارب مرحلة الاختبـــار الحسي اوجها (والتأمل الباطن يتلو التفكير المجرد على نحو ما هـذا يتلو الاختبار الحسي) . فالتعليم الصحيح والتربيـة الصحيحة يماشيان نظام تفتح القوى العقلية ويطاوعانه ، ومنهجهما يبدأ بارهـاف

الحواس وتهذيبها وشحذ القوى العقلية بالتدريب على المشاهدة العيانية والملاحظة حتى تتوسع قابلية النفس لوعي الأشياء المحسوسة اولاً ثم لادراك العلاقات الخفية تالياً . ولا يتمّ فهم الانسان حتى يتصرف ويعمل بالتوافق مع النظام الذي يدركه بتفتح قواه النفسية كلها .

الادراك الحسي هو اساس المعرفة العلمية والمعرفة الفنية ايضاً . فالتعليم والتربية في المرحلة الاولى يجب ان يكونا مرتكزين على ارهاف الحواس وتهذيبها للعلم والفن متتامّين متكاملين معاً لا منفصلين كما هي الحال تبعاً لوجهة النظر التربيوية الشائعة التي تجعل العلم خاصّاً بالعقل، والفن والأدب خاصّين بالعاطفة، وتجعل بين العقل والعاطفة هوّة اصطنعها جهل الانسان نفسه . ان تعليم العلم على طريقة توحيده مع الفن يزيل عنه الجفاف الملازم له في حالة التعليم الحاضرة والمسبب نفور معظم الطلبة منه ويُحلّ محل الجفاف جمالاً يتذوّقه طالب العلم . وتعليم الفن الذي غايته المعرفة يقرّبه الى قلوب معظم الطلاب فلا يكون من نصيب اقليّة ضئيلة فقط . فالعلم والفن على هذه الطريقة يوجهان الطالب الى الادراك والفهم على مرتبة المعرفة العليا .

ان تدريب الطلاب على مشاهدة الطبيعة ابتغاء المعرفة

العلميـة يجب ان يكون مقروناً مع ايقاظهم وتفتيح باصرتهم وبصيرتهم لادراك جمال الطبيعة ايضاً . وكذلك دراسة الضوء والصوت في الفيزياء يجب ان تقترن مع تذوّق الجمال في الضياء والظلال والألوان وتآلف الألحان . ومن الوجهة الثانية فدراسة الفن بمشاهدة الطبيعة يجب ان تقترن مع المعرفة عن الطبيعة وتفتّح القلب لمحبة كل ما فيها . ودراسة الموسيقى والرسم عن الطبيعة يجب ان تقترن مع مبادىء الدراسة الفيزيائية الرياضية في تحليل الأصوات واستظهار الانتظام في نبضها وحركتهـــا الدورية ، ووعي التناسب البسيط بين اهتزازات الألحان المتآلفة ، والتناسب العددي والهندسي بين الأشكال التي ترتاح اليها العين ، والتوافق والمطاوعة بين الاهتزازات والتموّجات المتجانسة ... الى ما لا نهاية له من التوازي والاقتران الذي لا ينفك بين الوجهة الفنية والوجهة العلمية لكل شيء في الطبيعة . ولا يسعنا في هذا المقام الا التلميح الى حقل لا تزال تربته بكراً لم تمسها حراثـــة علم التربية ودراسته لتستخلص ثمارها وخيراتها . فعلم التربية والتعليم لا يزال قاصراً عن جبر شطري العلم والفن في نفوس المتعلمين .

ويتدرج التعليم الصحيح من الاختبار الحسي الى التفكـير المجرّد الذي به يبدأ الانسان ان يتميز كإنسان وبـه يتمكن من استظهار واستجلاء العلاقات بين الأشياء الخافية عن المشاهدة

العيانية التي لا تدرك بالاختبار الحسي وحده . تلك العلاقات تؤلف متن المعرفة العلمية . والفن من دون التفكير المجرد والخيال يظل سمجاً مثقلاً باللذة الحسيّة فيثير الشهوات ويخدّر الأعصاب كالمسكرات .

ولكن الانسان مهما تقدم بقواه العقلية ومواهبه الفنية فهو من دون المحبة حادّ الجوانب خشن الملمس يثير نفوراً في القلوب . وهو من دون الحق والعدل كالقنبلة او الصاعقة التي تحوي طاقة عظيمة لكنها غير قابلة اللجم لدى انعتاقها . والتربية الصحيحة المجبولة بالمحبة والصدق والحق تجعل الطاقة الكامنة في نفس الانسان على النحو الذي نراه في الآلة الحرارية والدينمو الكهربائي حيث تتصرف الطاقة مقننة حسب الارادة فتتحوّل الى نور يضيء وحرارة تدفىء وحركة فيها بركة . اما «الثقافة العلمانية» الشائعة في هذا العصر فهي مع الأسف معزولة عن كل تعليم يفتّح المحبة في قلب الانسان ويدربه على انتهاج المحبة والصدق والحق في تصرفه تجاه الناس . لذلك لا نسمع صوت الانسان المثقف يعلو مطالباً بالحق والعدل الا حين يرتد ظلمه عليه . وامّا التعليم الديني المنتظر ان يكون تدريب الانسان على المحبة والصدق والحق والايمان بمصدر المحبة والحق فقد ضلّ اتجاهه وتحدّد مفعوله بتحديده ضمن نطاق الطائفية والقومية

السياسية التي تضخمت في تفكير ابنـاء هذا الجيل حتى شوّهت عليهم توازن الحياة .

نحن في حاجة لا الى تعليم وثقافة علمانيين ماديّين ولا الى تعليم ديني طائفي قومي ولكن الى تربية صحيحة تبدأ بارهـاف الحواس وتهذيبها وشحذ القوى العقلية وتتدرّج الى جوّ التفكير المجرد والخيال . امّا مـاء حياتها الذي لا حياة الاّ بـه منذ البداية ، وامّا الغاية القصوى فالمحبة وما يتفرع عنها من الصدق والحق والعدل . والمحبة لا تكون من دون الايمان بالله تعـالى مصدر مـا نشعر به من المحبة والحق والعـدل في المعاملات الانسانية . وما المعرفة العلمية والمعرفة الفنية في هذه التربيـة سوى وجهتين لنزعة عامّة توجه الانسان بالمعرفة والمحبة والايمان لى مصدر الحياة الصافي .

اذن فالمعرفة العلمية يجب ان توجه الى ادراك الجمـال في النظام والانسجام ، والقدرة في المعرفـة ، وللفهم ان القدرة للتسلط على قوى الكون تكون بمطاوعتها لا بمعاندتها . وبذلك يدرك طالب العلم ان اسمى مراتب المعرفة هي في الامتثـال والمطاوعة لنظام الكون والحياة . اما الاختبار العملي والتحليل الرياضي فبواسطتهما يقـدّر طالب العلم عمل التفكير المجرد ومقامه في ادراك جمال التوافق وفهم العلاقات الخافيـة عن

الحواس ، ويفهم ان الاختبارات الحسية لا تؤدّي الى معرفة مفيدة في حياة الانسان الا بعد درسها وتذريتها وغربلتها على بيدر التفكير المجرد . على هذا النهج يجب ان تعدّل مناهج العلوم في التربية والتعليم بحيث يدرك الطالب الجمال في المعرفة العلمية ويرى موضعها ومكانتها في نفسه وحياته .

اما في الوجهة الفنية في التعليم والتربية فارهاف الحواس يؤدّي الى ادراك وتذوق الجمال في الطبيعة ، وتهذيب الحواس يؤدّي الى تميز الزائف الذي يثير العواطف ويهيج الدم فيعكّر جوّ التفكير والمعرفة . ان تدريس الأدب والفن يجب ان يكون موجّهاً الى المعرفة الصحيحة — معرفة معنى الحياة وغايتها — لا الى التسلية بالحشو الكلامي ولا الى الانتشاء على مستوى الحواس توهّماً ان ذلك هو خلاصة الثقافة . ومن الوهم ان تعتبر الثقافة محصورة في دروس خاصة كالأدب والفن لانهما وجهتان لنزعة عامة يجب ان تشمل كل مواضيع الدراسة . والنزعة هذه هي ايقاظ التشوق الى ادراك الجمال المؤدّي الى المعرفة . ويقابل ذلك في العلوم التشوق الى المعرفة المؤدية الى ادراك الجمال من دون توهم بان المعرفة محصورة في الدروس العلمية . وهذه النزعة العامة تملأ الهوّة التي جعلتها مناهج الدراسة بين العلوم والآداب والفنون . ان ادراك الجمال هو

اساس المحبة . والمحبة هي مفتاح المعرفة . والمعرفة هي تعانق العقل الفردي مع الشيء الذي يتعرف اليه بحيث يتخذ شكله ويتطابق معه . ولا تقارب وتعانق من دون المحبة . فالجمال والمحبة والمعرفة كلها في النهاية كما في البداية واحد . والتربية الصحيحة الكاملة هي التي تؤدي الى ادراك وحدة المعرفة والجمال والمحبة .

المعرفة والحرية

اعظم غبطة عند الانسان هي ان يتحرّر من مخاوفه وهمومه واوهامه وان يتخلّص من اوجاعه وآلامه . امّا مخاوفه فما اكثرها : الخوف من الفقر والعوز اذا كان رقيق الحال ، او من خسارة المال والجاه اذا كان غنيّاً وجيهاً ، والخوف من الاعتداء والظلم ، والخوف من المرض والموت . والخوف من الشيء يضيّق انفاس الانسان مثلما يضيّقها وقوعه في الشيء الذي يخاف منه . فخوفه من مصيبة هو المصيبة بعينها. وهموم الانسان تكبر بكبره وتزداد بازدياد سني عمره . همّه اولاً ان يؤمّن لنفسه شغلاً يعتاش منه وان يؤسس بيتاً وان ينشىء عائلة تعوله حين يعجز لتنجّيه من الوحدة والوحشة والعوز في الشيخوخة . فيكبر اولاده « ويكبر همّهم معهم » ! ومَن سوى القليل النادر الذي لا يعرف ألم المرض في حياته ؟

واوّل هذه كلها التي تعكّر على الانسان صفاء عيشه سببها الاساسي الوهم ، وهو ان يصوّر الانسان لنفسه نظام الكون ومجاري الحياة على غير ما هي عليه . فينقاد بالوهم الى استنتاج

غير ما ينتظر والى الوقوع في غير ما يشتهي . هو يطلب اللذة الخارجة عن نشوة الحياة الصالحة فيلدغه الالم . ويشتهي حلاوة غير حلاوة الحياة الصافية فيقطف حنظلًا . يطلب الربح فيقع في الخسارة . هو يزرع زواناً ويريد ان يحصد حنطة ، واذ تصدقه الحياة فتردّ عليه زوانه زواناً يلعنها ويصمها بالقساوة والظلم ، ويشرك الدهر الخائن الغدّار في التواطؤ مع الحياة ويلومهما على الخيبة التي حلّت به . وما الدهر سوى تشخيص الانسان جهله ووهمه .

الحياة في ذاتها غبطة وحرية . وكل حيّ فيه كل ما في الحياة . فالاغتباط بالحياة والحرية هو ميراث حق لكل نفس فردية ، وليس في العالم قوة او سلطة يمكنها ان تسلبها وتحرمها ميراثها الازليّ الابديّ سوى ما يصدر عنها نفسها من الوهم والجهل اللذين يعميانها عن ميراثها وحقها . ولكن بتفتح البصيرة والمعرفة تدرك النفس ان ميراثها لا يزال لها فتغتبط به وتعود الى الاغتباط بالحياة والحرية . للانسان الحرية التامة ان يفكّر ويوجّه تفكيره الى حيث يريد . لا قوة في العالم يمكنها ان تمنعه من ذلك . وكذلك له الحرية التامة ان يشتهي ما يريد . ولو لم تكن له هذه الحرية لما انقاد الى الوقوع في العبودية . النظام والحرية والمعرفة هي ثلاثة وجوه لمعنى واحد — معنى الحياة — . فأسمى المعرفة هو الامتثال لنظام الحياة . وفي الامتثال لنظام الحياة الحرية التامة .

والحرّ لا يشتهي ما هو خارج عن نظام الحياة. من خرج على نظام الحياة فقد جهل وفقد حريته ووقع في العبودية. فلا حرية للجاهل ولا نظام وانتظام في حياته تركن وتطمئن نفسه اليهما. وليست الحرية التي يطلبها الجاهل في اشتهائه وتوجيه تفكيره الى ما هو خارج عن نظام الحياة سوى العبودية بعينها.

من اشتهى أو علّق قلبه بشهوة من شهوات الدنيا او بشيء من حطامها تحت تسلّط وتصرّف غيره فقد استعبد نفسه لمن في قبضته ذلك الشيء. ومن وجّه افكاره الى الغنيمة والربح قادته قدماه الى ارض تكثر فيها الادغال الشائكة والشراك والفخاخ المنصوبة فيعلق تارة بالاشواك ويتعثر تارة، ولا يخلص من شركٍ محتال حتى يقع في فخٍّ ظالم. فيتعالى صراخه مطالباً باستتباب الأمن ومنع التعدي وباجراء العدل ومنح الحرية. ولم يكن مكرهاً على ارتياد تلك الارض الكثيرة الاخطار، وليس ما يمنعه عن الخروج منها والتحرر من شرّها سوى نفسه.

ومن يوجّه افكاره الى ما هو ابديّ ازلي فلا يستعبد نفسه لأحد، لأن كل ما هو ابديّ ازليّ لا يتمكّن احد من الاستئثار به ومنعه عن الغير، ولا هو محصور في ارض المعاثر والشراك والفخاخ، فالطريق اليه حرّة. يستعبد الانسان نفسه بتوجيه تفكيره الى ما هو فانٍ زائل ولا يحرّر نفسه الاّ بتوجيه

تفكيره الى ما هو ابديّ ازليّ . وكأنّ افكار الانسان الموجهة الى الربح وجمع حطام الدنيا هي حزمة من حبال الصيادين، في طرف كل حبل صنّارة ، وطرف الحبل الآخر موثق بقلب الانسان . وقد القى الانسان حباله في كل الجهات. فعلقت بصنّارة في احدى الجهات سمكة ، والسمكة قد ازدردها تمساح . وعلق بصنارة في الجهة الثانية ضبّ، والضبّ قد ابتلعته افعى. والانسان في نزاعه مع التمساح الظالم والافعى المعتدية يتمزق قلبه غيظاً من الظلم والاعتداء وألماً من شد الحبال على قلبه . فهو ان ارخى الحبل للتمساح شدّته الافعى، وان ارخى للافعى شدّه التمساح . ولا يخطر بباله ان يقطع طرف كل حبل من جهته هو فيتخلص من الظلم والاعتداء والغيظ والالم. ولكن القدرة الالهية تلطفت بحاله وقطعت الحبلين. اما هو فأبقى الغيظ يحزّ قلبه ويمزقه ، اذ لم يهن عليه ان استباح الظالم والمعتدي غنيمته التي اصطادها هو فصارت حقاً حلالاً له ، لكنهما انتزعاها منه وتمتّعا بها وتواريا من دون ان يحاسبهما احد . ولم يحسب ان الصنارة التي علقت في حلق التمساح سببت له ورماً سدّ بلعومه، والصنارة التي علقت في بطن الافعى جعلت احشاءها تتململ داخلها كلما تململت هي على الارض. ولم يتعلم الانسان من تلك الحادثة فراح يرمي حباله على جوانب الطرقات. فمرّت قافلة سيارات جامحة هوجاء فعلقت بها اكثر

من صنارة من صنانيره وجرّته يتوضّض ويتجرّح على الارض في موكب القافلة الهوجاء. وكان معه كثيرون اشتركوا في ذلك النصيب الفظيع . وكان الناس يتحدثون على اثر ذلك عن زعماء القافلة الانسانية كيف يثيرون عواصف الحروب الهوجاء لأجل مصالحهم فينجرف في تيارها الصالح والطالح الى نهاية فظيعة . ولم يصلهم الخبر بان السيارة الاولى التي كانت تقلّ زعماء الموكب ، بعد ان توارت عن الانظار ، تدهورت عن منعطف في الطريق فوق هوّة سحيقة فتحطمت هي ومن فيها .

اما افكار الانسان الموجهة الى المعرفة والى ما هو ابديّ ازليّ في الحياة فهي كأشعة الانوار الكشافة ، اطرافها طليقة لا تعلق بالارض ولا تعلّق قلب الانسان بالدنيا ولا تمزّقه بشدّها عليه لكنها تنير سبيله ، فيهتدي الى الطريق التي لا معاثر فيها ، حيث لا يلتقي بتمساح ولا بافعى ولا يصطدم بقافلة هوجاء او بموكب غوغائي. فيسير في النور. وطريق النور هي طريق الحرية. ومصدر اشعاع النور والحرية للانسان هو التفكير النيّر الصادر من قلبه المحب .

يصعب على الانسان العائش على القشرة السطحية من نفسه ان يدرك الصلة التي تربط باطن نفسه الحقيقية بالحوادث التي يراها تصدم قشرته السطحية من الخارج . فهو لا يعي من نفسه غير

الاختبارات الحسية وما يقترن معها من الملاذ والآلام الجسمانية. وهو لا يعي من افكاره غير الصنّارة التي تربط وتقيّد فكره بالاشياء الخارجية الحسية. فهو مع نفسه كأنه يقطن بقعة دائرية من الارض، وهو ملازم محيط الدائرة، حيث قد وضع حدوداً لنفسه تفصله عن بقية الكون. وهو لسبب لا يعرفه لا يرتاد مركز الدائرة فيجهله. ويجهل ان في مركزها مركز اشعاع تنتشر اشعته الى خارج الدائرة فتلتقطها النفوس الفردية وتتأثر بها. ويظهر تأثرها بردّ فعل توجهه نحو مركز الاشعاع فيصدم محيط الدائرة. وردّ الفعل هو بحسب قانون الحياة من نوع الفعل الذي اثاره. فاذا انتشرت من مركز الدائرة اشعاعات محبةٍ وعدل وحرية عادت الى محيط الدائرة من النفوس الفردية المتأثرة بالاشعاعات علائم المحبة والعدل والحرية. واذا كانت اشعاعات تشويشٍ من اشتهاء واعتداء واستئثار فيعود عليها ردّ فعل من نوعها. والانسان في هذه الدرجة من التطور في حياته لم يتفتح وعيه العقلي حتى يستظهر صلة باطن نفسه الحقيقية بقشرته الخارجية من جهة، وصلتها بالحوادث والاشباح الخارجية من الجهة الثانية، فيرى الاشياء والحوادث تأتيه وتصدمه من الخارج كأنها مستقلة عن كل سبب او علاقة استدعت تلك الحوادث ان تتّجه نحوه وتصدمه. ويرى حريته ايضاً كما يرى الاشياء الخارجية مستقلة عنه

قابلة للنزع عن قشرته الخارجية. لذلك مثلما يتنازع مع التمساح والافعى على السمكة والضب فهو يحارب ويسفك الدماء موهوماً انه يحارب في سبيل الحق لاسترجاع حريته المنزوعة عنه او لدفع اعتداء يهدّده بسلب حريته او لصون شرف مهان او غسل عار مهين . وقد اصبح الافتخار بسفك الدماء لاجل الحرية ولصون الشرف من اعزّ واشرف التقاليد عند اقوام كثيرة. وقد نظموا في ذلك القصائد المزعومة انها اساس التربية الحرة الشريفة والابيات الموهومة انها خلاصة الحكمة . ان كانت تلك القصائد اغنية الحرية عند بعضهم فهي في الحقيقة عنوان الجهل والعبودية التي يرسفون في قيودها .

ان من اصعب الحالات التي يستعصي فهمها على عموم المفكرين وتفسير اسبابها وعواملها على ضوء مذهب المحبة الشاملة والحرية المطلقة والمعرفة الكاملة التي هي محبة وحرية ، هي حالة الافراد والاقوام الذين يظهرون بمظهر القناعة . لا يطلبون غير كفاف العيش ولا يرومون الاعتداء والسلب حتى بالطرق المشروعة التي لا يطالها القانون ولا يسفّهها ويرذلها الرأي العام. ومع ذلك فهم على شفار الفقر والعوز . هم اول من يمسهم العوز في الازمات واول من تفتك بهم الاوبئة ، وهم على الدوام القطيع الذي يجزّ صوفه ويستغلّ لبنه المسيطرون في السلم ويجرّونه الى المجزرة في

الحرب . ان هذه القضية وان يكن ظاهرها بسيطاً – ولذلك يشيع على الالسن ان الحق للقوة وان ... – لكنها اعمق غوراً وابعد مدى من كل القضايا المصفوفة في صف العلم الحديث . وفهمها يستوجب الاطلاع على الكثير مما لا نعلمه عن حياة الافراد والاقوام ، واستشفاف حواجز المهد واللحد التي تحدد نظرنا في قضية مداها لانهائي،واستبدال مقاييس المقادير المحدودة بمقاييس المقادير اللانهائية . فنحن في استعراض حياتنا وتقدير حوادثها بناء على افتراض انطباقها على مرحلة العمر بحدوه المهد واللحد كمن لا يعي من سنته غير اليوم الذي هو فيه،او يقدر نتيجة عمره بغلّة السنة التي هو فيها،او كالمريض الذي لا صبر له فيرى الحياة كلها الماً وشقاء ، او كالجاهل الذي يحسب ان السكرة التي هو فيها تدوم مدى العمر.ولكن حين تتفتح بصيرة النفس الفردية حتى تبصر ان قبل البداية وبعد النهاية سلسلة من بدايات ونهايات مراحل لا تحصى ، تتغيّر وجهة نظرها الى كل ظواهر الحياة وحوادثها فتبصر في الحياة غير ما كانت تنظره بنظرها المحدود .

يجب التحذّر من اساءة فهم وجهة النظر هذه وتفسيرها بان الافراد والاقوام المستعبَدين المظلومين العائشين في الفقر والقذارة والمرض يستحقون نصيبهم فيجب تقوية ظلاّمهم عليهم وتمكين

المستأثرين من الاستئثار بهم . من كان تفكيره على هذا النمط ادّى به تفكيره عاجلًا او آجلًا الى ايقاعه في صف اولئك الاشقياء. ومثله من ادرك الحاجة الى اصلاح حالهم ولكنه يكفّ نظره مجتازاً. ومن يفكر بانّ ما قد كتب للانسان فلا فائدة من محاولة تغييره او ان من كان نصيبه الشقاء في هذه الدنيا فعليه ان يقنع بما كتب له على ان يعوض عليه في الآخرة — من يفكر هكذا لنفسه ام لغيره فآخرته تعيد عليه اولاه او تعيده اليها . ان لم يكن في قدرة النفس الفردية احراز التحرر التام في مرحلة هذا العمر فالبدء بضبط التوجّه نحو غاية التحرر ضروري من حين تستيقظ النفس وتشعر بتشوّقها الى الحرية .

من طلب الحرية لنفسه واهتزت احشاؤه بنشوة مبادىء التحرر اراد من كل قلبه ان تشاركه بقية النفوس الفردية في ما ينشده، وهو اهل ان يرشد غيره الى بداية طريق الحرية ، لكن من لم يتحرر من قيود شهواته فكيف يمكنه ان يحرر غيره او يرشده الى الطريق؟ وهذه هي قضية هذا الجيل الذي يطلب الحرية بشفتيه — حرية الجاهل التي هي سراب واوهام — وقلبه مثقل بقيود العبودية التي يتسلح بها ليحارب ويستفكّ حريته الموهومة انها في قبضة غيره ، ويتوهم ان للحرية طريقاً مختصراً يفتحه بالسيف — وكدت اقول مستغنياً عن طريق التحرر النفسي التي

هي طريق طويلة شاقة – لكنه لا يطلب ذاك التحرر ولا يفهم له معنى . فالاستقلال السياسي قد اصبح في عرف هذا الجيل مرادفاً للحرية ، والحرية بحسب نظره هي مضمونة في الاستقلال السياسي والسيادة القومية. ومع ان هذه الأصنام لم تجلب لشعوب هذا العصر غير عبودية الحروب العالمية لكن أبناء هذا الجيل لا يزالون متشبثين أشدّ التشبّث يحثّون أنفسهم في السعي والجهاد. فكأنّ عيونهم لا تبصر وآذانهم لا تسمع . فلم يجلب الاستقلال السياسي حرية لأحد . ولا الذين تحرروا ينادون بالاستقلال أو يتزعمون السياسة ، بل همّهم أن يرشدوا غيرهم الى طريق الحق والحريّة التي هي وحدها مستقلة استقلالاً تاماً عن كل سلطة عالمية زمنية. وهم كمن يترك القافلة في الصحراء محمومة في سيرها وراء حداتها نحو السراب ويحفر في الأرض حتى يصل الى الماء فيتحرّر به من الظمأ .

ان حرية الانسان هي في تفكيره . باعوجاج تفكيره يستعبد نفسه ، وبالتفكير الصحيح والمعرفة يحررها . والجاهل لا يميّز بين العبودية والحرية . فمن الناس من يرسف في قيود العبودية وهو متوهّم كما يتوهمه الناس أنه سيّد قومه . ومنهم كسقراط في السجن يعلّم ويجاهر بانه يتمتع بحرية لا يعرفها ساجنوه المقيدون بسلاسل عبودية أشدّ من عبودية الرقّ .

ومثله أبقطيطس الفيلسوف المعروف « بالعبد الحر » كان في عرف الشريعة عبداً رقيقاً وفي عرف الحكماء حرّاً . ولا يُعرَف شيء عن سيّده سوى أنه كان وجيهاً من وجهاء رومية ، ولا يبعد أنه كان يرسف في قيود عبوديته للمخاوف والهم والقلق التي يرسف فيها كل وجيه متسلّط .

وهل الانسان عبد للطبيعة أم هو سيّدها ؟ حيث يعرف سنّتها ويطاوعها فهو قد تسلّط عليها وسخّر قواها لخدمته وتحرر من عبوديته لها . وحيث يجهل سنّتها ويعاندها فهو مستعبَد لها ، لأنه إمّا أن يرضخ لها رغم ارادته أو ينسحق . ومطاوعته للطبيعة هي مطاوعة العارف الممتثل للنظام ، لا مطاوعة الجاهل المرغم . ولنحترز من الوقوع في الوهم بأن شهوات الانسان الزائغة عن ناموس الحياة ونظامها هي من طبيعة الانسان ونظام الطبيعة فنطاوعها . ان أكثرية البشرية تتألم من نتيجة هذا الوهم السائد عليها . فالناس في مطاوعتهم شهواتهم الزائغة يعاكسون ويعاندون ناموس الحياة ونظامها فينجرفون في التيّار المؤدي الى انسحاق النفس والتألم في العبودية .

ومن يطلب ويتمنى غير ما تأتيه به الأقدار فهو مستعبَد — لا للأقدار — ولكن لما يعلّق به قلبه ويقيّد به فكره .

فالاقدار ما هي غير نظام الكون والحياة يوصل لكل نفس فردية ولكل قوم ما تحتّم عليهم نتيجة حريتهم في اختيارهم ما اختاروه . من يعاند الأقدار يستعبد نفسه ومن يطاوعها يتحرر. فمن يوطّد نفسه على قبول كل ما تأتيه به الأقدار لا قبول المرغم بل قبول طالب المعرفة الذي يرى لكل حادثة معنى لحياته ويريد ان يفهمه فهو على طريق التحرر من العبودية وان يكن في عرف المستفسطين « عبداً للأقدار » . هو في مرحلة الانتقال من صف المسيَّرين الى صفّ المخيَّرين .

ان مفترق الطريقين ، طريق الحرية وطريق العبودية ، هو بيدر يجمع عليه الانسان غلّته حتى اليوم الذي يستفيق فيه الاشتياق الى الحرية . وعليه يجب أن يدرس ويذرّي ثم أن يغربل ما اختلط عليه من أشواق قلبه . وفي غربلتها يختار احدى الطريقين : فمن أشواق قلبه حنين الى ما قد مضى عهده ومنها اشتياق الى ما هو أبديّ أزليّ . والذي قد انقضى عهده هو ما ترمّد من القلب بنار شهواته . والحنين اليه هو محاولة احياء الماثت فينا . محاولة اضرام النار في الرماد . هو التعلق بما فيه عبودية الانسان . اما ما تمحص من القلب بلهيب النار وقوي عليها فهو الأبدي الأزلي الذي هو حي فينا . واشتياقه هو الاشتياق الى مصدر الحياة كلها ، هو المعرفة التي تتبين بها

وحدة القلب المحب والعقل النيّر ، ووحدة النفوس الفردية في النفس الكلية الشاملة . تلك هي المعرفة التي تهدي النفس الى طريق الحرية ، الى مصدرها .

« المعرفة الكاملة هي المحبة التي لا حد لها . والمحبة التي لا حد لها هي نهاية المعرفة . » والامتثال لنظام الحياة هو طريق المعرفة . فالمعرفة والمحبة والحق والحرية كلها واحد في الامتثال لنظام الحياة . وطريق الحرية هي طريق المحبة التي هي المعرفة والحق .

« وتعرفون الحق والحق يحرّركم »

فهرست

هذا كتاب خير (بقلم ميخائيل نعيمه)	٧
العقل والقلب	١٥
العلم والمعرفة	١٧
التفكير العلمي	٢٩
غاية العلم	٤٤
حدود العلم	٥٤
أساسيات المعرفة العلمية	٦٤
ارهاف الحواس وتهذيبها	٨٦
شحذ القوى العقلية	٩٨
طريقان يتلاقيان	١١٢
اعرف نفسك	١٢١
العلم والتنظيم الاجتماعي	١٤١
غاية التعليم والتربية	١٤٩
مناهج التعليم ونتائجها	١٦٠
التربية القومية الوطنية	١٧٠
الثقافة	١٨٢
المعرفة والحرية	١٩٧

X3
22

Dr. Jerome S. Coles
Science Library

NEW YORK UNIVERSITY
Elmer Holmes Bobst Library

NYU - BOBST
31142 02367 1855
Q183.4.A65 D85 1900z al-Aql wa-al-qalb : khawatir f